

الفصل الثاني

سبل تحقيق النسيج الاجتماعي عند علماء المالكية من خلال نصوص القرآن

وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: جهود علماء المالكية في بيان النصوص القرآنية وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي.

المبحث الثاني: جهود علماء المالكية في بيان أن التمسك بالقرآن سبب في تحقيق النسيج الاجتماعي.

المبحث الثالث: جهود علماء المالكية في بيان لزوم الجماعة من خلال نصوص القرآن في تحقيق النسيج

الاجتماعي.

المبحث الرابع: جهود علماء المالكية في ترسيخ مسألة السمع والطاعة من خلال نصوص القرآن في

تحقيق النسيج الاجتماعي.

المبحث الخامس: جهود علماء المالكية في أن فهم الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم سبب لتحقيق وحدة

النسيج الاجتماعي.

المبحث الأول

جهود علماء المالكية في بيان النصوص القرآنية وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي

إنَّ القرآن الكريم كله دعوة إلى تحقيق النسيج الاجتماعي، بدءاً من إصلاح الأفكار والمعتقدات، ومروراً بجميع جوانب الحياة الاجتماعية، وأذكر في هذا المبحث وسائل تحقيق النسيج الاجتماعي في النصوص القرآنية.

أولاً: نزول القرآن باللغة العربية وأثر ذلك في تحقيق النسيج الاجتماعي.

اختر الله لكتابه الخاتم لغة العرب، فنزل بلسان عربي مبين، وقدم الله شأنه على الخلق، قال سبحانه:

﴿الرَّحْمَنُ ۙ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾¹⁴⁸.

فقدم الله القرآن على خلق الإنسان، رغم أن خلق الإنسان زمنياً متقدماً على نزول القرآن، فكان هذا الترتيب ترتيب رتبة وقيمة، وليس ترتيباً زمنياً؛ ليدل على أن مسألة تعليم القرآن أعظم رتبة من خلق الإنسان، وبين سبحانه أن لكل مخلوق لغة، فقال: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾¹⁴⁹.

وذكر كلام النمل والهدهد، فقال سبحانه عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ

¹⁴⁸ (القرآن. الرحمن: 55: 1-4).

¹⁴⁹ (القرآن. الإسراء: 44).

تُحِطُّ بِهِ وَحِثُّكَ مِنْ سَبَابِ بَنِي إِعْرَابٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَآ

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ الآيات 150 ، وقال عن النملة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ

أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ 151 .

فدلت الآيات أن للمخلوقات لغات خاصة فيما بينها، لكنها تختلف عن البيان الذي ميز الله به الإنسان، فلغة الإنسان مقرونة بالفكر والمشاعر، يحكمها العقل، وليست أصواتا خالية من المعنى، بل هي حية واسعة ثرية بما فيها من نبر وتنغيم، وتستطيع التعبير عن مكنون الإنسان، لذلك ذكر الله البيان عقب القرآن والخلق.

وأعظم لغة فيها الحياة والثناء والتنوع والبيان عن مكنون النفوس بأوجز عبارة وأعذب أسلوب هي لغة العرب التي اصطفها لكتابه الحكيم، فأنزل الله بها الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلَنَبِّئَنَّهُمْ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٣﴾

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ 152 ، فكانت اللغة العربية من أسباب وحدة الأمة واجتماعها، فهي التي تربط بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، برباط فكري ولفظي خالد بخلود القرآن الكريم .

قال الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية الكرّمة: « إن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها لاحتمال المعاني الدقيقة الشريفة مع الاختصار؛ فإن ما في أساليب نظم كلام العرب من علامات الإعراب، والتقديم

150 (القرآن. النمل 27: 22-23)

151 (القرآن. النمل 27: 18).

152 (القرآن. الشعراء 26: 192 – 195).

والتأخير، وغير ذلك، والحقيقة والمجاز والكنائية، وما في سعة اللغة من الترادف، وأسماء المعاني المقيدة، وما فيها من المحسنات، ما يلج بالمعاني إلى العقول سهلة متمكنة، فقدّر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه، الذي خاطب به كافة الناس فأنزل بادئ ذي بدء بين العرب أهل ذلك اللسان ومقاولي البيان ثم جعل منهم حملته إلى الأمم تترجم معانيه فصاحتهم وبيّانهم، ويتلقى أساليبه الشادون منهم وولدانهم، حين أصبحوا أمة واحدة يقوم باتحاد الدين واللغة كيانهم»¹⁵³.

فاللغة العربية من أسباب الوحدة الفكرية بين كل مسلم في العالم، لا سيما في هذه الأزمنة التي زاد فيها التناحر والاختلاف، ولذلك كانت الحرب على اللغة العربية شعواء شرسة.¹⁵⁴

ثانياً: نصوص القرآن الكريم الدالة على «وحدة الأمة» وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي:

ورد لفظ (أمة) في القرآن في عدة مواضع، وهو من المشتركات اللفظية، وله أربعة تفسيرات بحسب السياق:

الأول: بمعنى البرهة من الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ

مَعْدُودَةٍ﴾¹⁵⁵، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾¹⁵⁶.

الثاني: بمعنى الجماعة من الناس، وهو الأغلب، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ

¹⁵³ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 20 / 189.

¹⁵⁴ راجع: تاريخ الدعوة إلى العمامة وآثارها في مصر، للدكتورة نفوسة زكريا، اللغة الباسلة للدكتور فتحي جمعة، أباطيل وأسماير للأستاذ محمود محمد شاكر.

¹⁵⁵ (القرآن. هود: 11: 8).

¹⁵⁶ (القرآن. يوسف: 12: 45).

يَسْقُونَ ﴿١٥٧﴾ ، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ ¹⁵⁸ ، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ¹⁵⁹ ،

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ¹⁶⁰ .

الثالث: بمعنى الرجل المقتدى به، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ ¹⁶¹ .

الرابع: بمعنى الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ¹⁶² الآية، وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ

أُمَّتِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ^{163 164} . قال الإمام الطبري ¹⁶⁵ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتِكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً﴾ ¹⁶⁶: «أي أن دينكم دين واحد»، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ

أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ¹⁶⁷؛ أي جعلهم على دين واحد ¹⁶⁸ .

¹⁵⁷ (القرآن. القصص 28: 23).

¹⁵⁸ (القرآن. يونس 10: 47).

¹⁵⁹ (القرآن. البقرة 2: 213).

¹⁶⁰ (القرآن. الأعراف 7: 34).

¹⁶¹ (القرآن. النحل 16: 120).

¹⁶² (القرآن. الزخرف 43: 22).

¹⁶³ (القرآن. الأنبياء 21: 92).

¹⁶⁴ محمد الأمين الشنقيطي. 1415 هـ - 1995 م. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ج2. ص 173. جامع البيان في تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، 1420 هـ، 2000 م، 19 / 41.

¹⁶⁵ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، مفسر ومؤرخ وفقيه، ولقب بإمام المفسرين، وذهب إلى مصر فسار إلى الفسطاط في سنة 253 هـ، وأخذ على علوم مالك، ثم رجع واستوطن بغداد، توفي عام 839 هـ. ينظر: وفيات الأعيان، 191/4.

¹⁶⁶ (القرآن. الأنبياء 21: 92).

¹⁶⁷ (القرآن. هود 11: 118).

¹⁶⁸ ينظر جامع البيان، 4 / 276.

والله تعالى لم يبعث أحداً من رسله إلا بالإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ

الإِسْلَامُ﴾¹⁶⁹،

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾¹⁷⁰، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹⁷¹

فالإسلام أمة؛ لأنه يبعث على الاجتماع وينبذ الفرقة، قال الطاهر ابن عاشور: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ

لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾¹⁷²؛ الجعل هنا: التقدير، وإلا فإن الله أمر الناس أن يكونوا أمة واحدة على

دين الإسلام، والأمة: الجماعة العظيمة الذين دينهم ومعتقدهم واحد، وأصل الأمة في كلام العرب: القوم

الكثيرون الذين يرجعون إلى نسب واحد، ويتكلمون بلسان واحد؛ أي لو شاء لخلقكم على تقدير

واحد»¹⁷³.

وقال الإمام القاضي أبو بكر المالكي¹⁷⁴: «إن وحدة الأمة كانت فيما هو من مقتضى أصل الفطرة

¹⁶⁹ (القرآن. آل عمران 3: 19).

¹⁷⁰ (القرآن. البقرة 2: 132).

¹⁷¹ (القرآن. آل عمران 3: 67).

¹⁷² (القرآن. هود 11: 118).

¹⁷³ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 224 / 6.

¹⁷⁴ محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، (468هـ - 543هـ) المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ، عالم أهل الأندلس ومسندهم، وهو غير محي الدين بن عربي الصوفي - من حفاظ الحديث. ينظر: سير أعلام النبلاء 197 / 20.

من الأخذ بما يرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل، فكان الناس يهتدون بعقولهم، والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع، ووجوب شكره، ثم كانوا يميزون الحسن من القبيح، والباطل من الصحيح بالنظر في المنافع والمضار، أو الاتفاق مع ما يليق بالله على حسب ما يرشد إليه العقل أو ما لا يليق، ولا ريب أن استسلام الناس إلى عقولهم بدون هداية إلهية؛ مما يدعو إلى الاختلاف، بل كثيراً ما حالت الأوهام دون الوصول إلى المراد من العقائد والأحكام، فيكون الاختلاف مفهوماً من معنى الوحدة على هذا التأويل وما سبقه، ولهذا رتب عليها بعثة الأنبياء؛ ليحكموا بما أنزل الله فيما اختلف فيه الناس»¹⁷⁵.

فما أرسل الله رسولا ولا أنزل كتاباً منذ البداية، إلا بهذا الدين الكامل الواحد، الذي ارتضاه لعباده ولا يقبل من أحد دينا سواه، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والإيمان، والإذعان له بالطاعة والعبادة، فهذا هو دين جميع الأنبياء، وإن اختلفت الشرائع، فالدين واحد وهو الإسلام، والشرائع مختلفة، قال القرطبي: «أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزلف إليه بما يرد القلب والجراحة إليه، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والزنى، والأذية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدنئات، وما يعود بخرم المروآت، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملةً متحدةً، لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وذلك قوله تعالى:

﴿أَنْ أَيْمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾¹⁷⁶؛ أي: اجعلوه قائماً، يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير

خلاف فيه ولا اضطراب، فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث، واختلفت الشرائع وراء هذا في معان

¹⁷⁵ ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 2 / 220.

¹⁷⁶ (القرآن. الشورى 42: 13).

حسبما أَرَادَهُ اللهُ؛ مِمَّا اقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةُ، وَأَوْجَبَتْ الْحِكْمَةُ وَضَعَهُ فِي الْأَزْمِنَةِ عَلَى الْأُمَّمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»¹⁷⁷.

فَدَلَّ ذَلِكَ، أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُ أُمَّةٌ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ النَّاسَ وَلَا يَفْرَقُهُمْ، يَجْمَعُهُمْ عَلَى مَقْصِدٍ وَاحِدٍ، وَالْوَحْدَةَ لَا تَقْبَلُ التَّجْزُؤَ، وَلِأَنَّهَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ فَإِنَّهَا تَحَقِّقُ التَّجَانُسَ فِي نَسِيجِ اجْتِمَاعِي قَوِيٍّ يَجْعَلُ لِلدَّوْلَةِ كِيَانًا يَحْفَظُ الْوَحْدَةَ، وَيَلْمُ الشَّعْثَ.

وَمَنْ أَبِي الْإِسْلَامِ، فَلَهُ حُرِيَّةُ الْمُعْتَقِدِ، وَاللَّهُ يَحَاسِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَكْرَهُ الْإِسْلَامَ أَحَدًا لِاعْتِنَاقِهِ، قَالَ

تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾¹⁷⁸.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: «لَا اعْتِبَارٌ بِالْإِجْبَارِ عَلَى الدِّينِ الْبَاطِلِ، وَيُظَلُّ الْمَكْرَهُ عَلَى الْبَاطِلِ وَالْكَفْرَ مُؤْمَنًا»¹⁷⁹.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةِ الْمَالِكِيِّ¹⁸⁰: «الدِّينُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْمُعْتَقِدُ وَالْمَلَّةُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

الْغَيِّ﴾... الْإِكْرَاهُ الْمَنْفِيُّ هُنَا هُوَ فِي تَفْسِيرِ الْمُعْتَقِدِ مِنَ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ؛ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ¹⁸¹.

وَكُلُّ فَرْدٍ وَمَوْطِنٍ -مُسْلِمٍ أَوْ غَيْرِ مُسْلِمٍ- فِي الدَّوْلَةِ مُلْزَمٌ بِالْحِفَاطِ عَلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ، فَلَا يَحِقُّ لَهُ ارْتِكَابُ

مَا يَهْدِدُ وَحَدَّثَهَا.

¹⁷⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 11 / 16.

¹⁷⁸ (القرآن. البقرة 2: 256).

¹⁷⁹ ينظر: أحكام القرآن لابن العربي، 1 / 253.

¹⁸⁰ هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية المحاربي الغرناطي المالكي، ينظر: سير أعلام النبلاء، 19 / 586.

¹⁸¹ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. عبد السلام عبد الشافي محمد. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. ج 1. ص 343.

ومن أول نشأة الإمارات وهي تحقق هذا الهدف، أمة واحدة، قال الشيخ زايد «إذا كنا في هذه الدولة نستقل سفينة واحدة وهي سفينة الاتحاد، فعلينا أن نعمل على تحقيق سلامتها حتى تستمر مسيرتنا وتصل إلى برّ الأمان، ولا يجوز أن نسمح بأيّ تهاون يعوق هذه المسيرة؛ لأنّ نجاة هذا نجاة لنا، وإذا فُرض أن هناك من يحاول إتلاف هذه السفينة فهل نسكت على ذلك؟! أبداً بالطبع؛ لأنها إذا غرقت فلا أحد يضمن لنا السلامة».¹⁸²

وثابر - عليه الرحمة - واجتهد في توحيد البلاد، حتى رفع الله شأنها، وأعلى قدرها، وفي ذلك يقول ﷺ: «إن شعب الإمارات شعب واحد ذاق مر الحياة وعليه أن يذوق حلوها».¹⁸³

وقال: «نحن صبرنا وقتاً طويلاً وبدلنا جهوداً متواصلة لنبني أسس وقواعد هذا الاتحاد، وبدلنا الغالي والنفيس في سبيل هذا الاتحاد الذي قام في وقت كنا نعيش ظروفًا صعبة»¹⁸⁴.

ثالثاً: نصوص القرآن الكريم الدالة على «الترايط والأخوة» وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي:

خلق الله الإنس من أصل واحد، هو آدم ﷺ، ليترايط بنو آدم، وبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ليجتمع الناس على عبودية خالقهم ورازقهم.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا وَجْهًا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

¹⁸² الكلام العجب من حكيم العرب (30).

¹⁸³ الفرائد من أقوال القائد (17/3).

¹⁸⁴ الفرائد من أقوال القائد (382/3).

وَنَسَاءً وَأَقْتُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾¹⁸⁵

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنْ

الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾¹⁸⁶

فكان الأصل واحد، ليترابطوا ويتكاتفوا، ويراعي بعضهم بعضا، قال الإمام الطبري في تفسير الآية: «وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، مُعْرِفًا عباده كيف كان مُبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبئهم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بُعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له»¹⁸⁷.

وفي الآية دعوة لتوحيد البشرية بتوحيد العبادة، فإذا كان الأصل واحد، وخالق واحد، فالدين الحق واحد، فبدأت الآية بنداء الناس كلهم، عرهم وعجمهم، أسودهم وأبيضهم، ذكرهم وأنثاهم، نداء عام شامل لكل الناس أن يتقوا الله ويعبدوه وحده، «نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، إذ قال: اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة

¹⁸⁵ (القرآن. النساء. 4: 11).

¹⁸⁶ (القرآن. الأعراف. 7: 189).

¹⁸⁷ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 115/7.

الاعتقاد، فالمقصود من التقوى في اتقوا ربكم اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه، وذلك حق توحيدہ والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال والصفات... وفي الآية تلويح للمشركين بأحقية اتباعهم دعوة الإسلام، لأن الناس أبناء أب واحد، وهذا الدين يدعو الناس كلهم إلى متابعتة ولم يخص أمة من الأمم أو نسبا من الأنساب، فهو جدير بأن يكون دين جميع البشر، بخلاف بقية الشرائع فهي مصرحة باختصاصها بأمة معينة»¹⁸⁸.

وبين سبحانه في نصوص القرآن الكريم أن أقوى أنواع الأخوة هي أخوة الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾¹⁸⁹.

والغالب الأعم في لغة العرب أن لفظ إخوة يطلق على إخوة النسب، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾¹⁹⁰، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾¹⁹¹، وتطلق الإخوان -غالبا- على الصداقة دون أن يكون بينهم نسب، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِلِينَ﴾¹⁹².

وجاء اللفظ القرآني بإخوة لا إخوان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، للدلالة على أن ترابط الإيمان وقوته

¹⁸⁸ الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. 4 ج. - 214 215 ص.

¹⁸⁹ (القرآن. الحجرات 49: 10).

¹⁹⁰ (القرآن. يوسف 12: 58).

¹⁹¹ (القرآن. النساء 4: 176).

¹⁹² (القرآن. الحجر 15: 47).

كإخوة النسب، وأن إخوة النسب إذا نشب بين اثنين ما يدعو للخصام، قام سائر الإخوة بالصلح والإصلاح، فكذلك إخوة الدين¹⁹³.

قال القرطبي: «إن الأخوة في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل أخوة الدين أثبت من أخوة النسب»¹⁹⁴.

وقال ابن عاشور: «ولما كان المتعارف بين الناس أنه إذا نشبت مشاققة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها، مشياً بالصلح بينهما، فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم، أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبث السُّفراء إلى أن يرفعوا ما وهي ويرفعوا ما أصاب ودهى»¹⁹⁵.

وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾¹⁹⁶

تعبير يدل على التلاحم والترابط بين المؤمنين، وكأنهم جسد واحد، قال ابن عاشور: «عبر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعاً له على غير بصيرة لما في معنى الولاية من الإشعار

¹⁹³ ابن منظور، لسان العرب. أبو حيان، البحر المحيط.

¹⁹⁴ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 16 / 212.

¹⁹⁵ ينظر التحرير والتنوير، 244 / 27.

¹⁹⁶ (القرآن. التوبة 9: 71).

بالإخلاص والتناصر»¹⁹⁷.

وقال القرطبي: «أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف»¹⁹⁸.

وفي المقابل نفى عنهم العصبية للجنس أو الوطن أو العشيرة، فقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹⁹⁹.

وهذه الآيات كما قال العلامة الشنقيطي رحمته الله: «تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصبية المعروفة بالقومية لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين... وتلك القرابات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع، لأنها تشمل المسلم والكافر، ومعلوم أن المسلم عدو الكافر... والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله» ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضاً»²⁰⁰.

ولأن للوسائل حكم المقاصد، فقد أوجب الله تعالى كل ما يحقق مقصد الترابط بين المؤمنين، وحرّم

¹⁹⁷ ابن عاشور. التحرير والتنوير ج 10. ص 263.

¹⁹⁸ القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج 8. ص 203.

¹⁹⁹ (القرآن. المجادلة 58: 22).

²⁰⁰ الشنقيطي، أضواء البيان. ج 3. ص 42.

كل يدعو للنزاع والفرقة والاختلاف، فكان الترغيب في اتباع هدي القرآن، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا

الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾²⁰¹ وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾²⁰².

قال العلامة الشنقيطي: «ومن هدي القرآن للتي هي أقوم، هديته إلى أن الرابطة، التي يجب أن يعتقد

أنها تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها، إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط

بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي، كأنه جسد واحد، إذا اشتكى منه

عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك

بساقك، كما جاء في حديث النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»²⁰³، ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق

النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أبا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ

أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾²⁰⁴؛ أي لا تخرجون إخوانكم وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾²⁰⁵؛ أي بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾²⁰⁶؛ أي

²⁰¹ (القرآن. الإسراء: 17: 9).

²⁰² (القرآن. آل عمران: 3: 103).

²⁰³ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، (4/ 1999)، برقم: (2586)، والبخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (8/ 10)، برقم: (6011)، بلفظ: ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى.

²⁰⁴ (القرآن. البقرة: 2: 84).

²⁰⁵ (القرآن. النور: 27: 12).

²⁰⁶ (القرآن. الحجرات: 49: 11).

إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾²⁰⁷؛ أي لا يأكل أحدكم مال

أخيه، إلى غير ذلك من الآيات»²⁰⁸.

وقال الظاهر ابن عاشور في أمر الله للمؤمنين بالاعتصام بحبل الله: «أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم

لأخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا

باتحادهم قوة وغماء، والاعتصام افتعال من عصم، وهو طلب ما يعصم؛ أي يمنع»²⁰⁹.

وما أكثر صور قوة النسيج الاجتماعي في جماعة المؤمنين من الصحابة!! وأذكر صورة واحدة ذكرها

القرآن عند هجرة المباركة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ

نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾²¹⁰

أكرم الأخلاق على الناس هو الإيثار²¹¹، وهو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في

الحظوظ الدنيوية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة²¹².

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أكثر من رواية، أصحها ما رواه البخاري ومسلم، أن رجلاً جاء

²⁰⁷ (القرآن. البقرة: 2: 188).

²⁰⁸ ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار الفكر، 1415هـ، 1995م، 42 / 3.

²⁰⁹ ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور، 30 / 4. جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 71/7.

²¹⁰ (القرآن. الحشر: 59: 90).

²¹¹ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، 267 / 8.

²¹² تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) (18 / 18)

إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصابني جوع، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: من يضيف هذا الليلة، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فاصطحبه إلى بيته؛ فقال لامرأته: هل عندك شيء قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فدعيهم يتلهون بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفتي السراج، وأريه أنا نأكل. ففعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: (قد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة)؛ وفي رواية البخاري: فأُنزل الله قوله تعالى:

﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾²¹³، وقد جاء في بعض الروايات، أن الصحابي الذي استضاف ذلك الرجل هو أبو طلحة رضي الله عنه، وهذا أصح ما ثبت من روايات لأسباب نزول هذه الآية الكريمة، وهي تبين ما كان عليه الأنصار رضي الله عنهم من حب لإخوانهم المهاجرين، فكانوا يعطونهم أموالهم؛ إثارة لهم بما على أنفسهم، ولو كان بهم حاجة وفقر إلى ما بذلوا من أموال²¹⁴.

ومن خلال هذه الآية، وسبب نزولها، يمكن إدراك أهمية صفة الإيثار في حياة المجتمع المسلم؛ الأمر الذي ينعكس على تطور المجتمع وتقدمه لما فيه خيره في الدنيا والآخرة؛ وبالمقابل بينت الآية الكريمة أثر صفة الشح على حياة المجتمع؛ وما يؤدي إليه من التباغض والتحاسد وتقطيع روابط الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع وهدم الثقة والاطمئنان بينهم.

ومن فضل الله علينا في دولة الإمارات أن وهبنا قادة مؤسسين حكماء، سهروا من أجل بناء الوحدة الشائخة، وعملوا على تخطي العقبات، والتصدي للتحديات، وجمع الصفوف، وتوحيد القلوب، في سبيل

²¹³ (القرآن. الحشر 59: 9).

²¹⁴ ينظر أسباب النزول للواحدى، 192.

تحقيق قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾²¹⁵ حتى تكملت

جهودهم بالنجاح الباهر، وبزغ فجر دولة الإمارات العربية المتحدة، ثم واصلوا البناء، وتفانوا في العطاء، فاشتد عود هذا الاتحاد، فأثمر من كل شيء بهيج، ومن الوفاء أن نتذكر تضحيات الآباء المؤسسين، الذين بنوا مجدنا، ورسخوا اتحادنا، حتى غدت دولة الإمارات مثلاً رائداً، وأ نموذجاً يحتذى، والشيخ زايد (طيب الله ثراه) خير القادة، الذين جاهدوا لوحدة نسيج الأمة، وهذا ما أشار إليه ﷺ في خطبته التي قال فيها: « لقد أكدت السنوات الماضية أهمية الاتحاد وضرورته؛ لتوفير الحياة الأفضل للمواطنين، وتأمين الاستقرار في البلاد، وتحقيق آمال شعبنا في التقدم، والعزة، والرخاء»²¹⁶.

وبفضل الله ﷻ حققت دولة الإمارات العربية المتحدة في ظل الاتحاد ما يتطلع إليه شعب الإمارات من إنجازات، وتقدم في المجالات كافة، وبلوغ أرقى المستويات في الصحة، والتعليم، والتكنولوجيا، والزراعة، والتجارة، والاقتصاد، والإعمار، حتى بلغت أعلى المعايير في التنافسية، والمقاييس الدولية؛ وهذا أقوى دليل وأصدق شاهد على نجاح الاتحاد، وحكمة القيادة، وقوة الإرادة، وصلابة التماسك والتلاحم، فنشكر الله تعالى على نعمة الاتحاد، وبنظرة إلى من حولنا نعرف فضل اتحاد الإمارات، ونتمسك به، ونزداد يقيناً بضرورة المحافظة عليه، ونبدل دونه أرواحنا، ونحافظ عليه قوياً متيناً، ومزدهراً آمناً، ونلتف حول القيادة الرشيدة، ونكون سبباً للمحبة والوثام، وسداً منيعاً أمام الفتنة والخصام، والفرقة والانقسام، فقد أكد القرآن الكريم على مبدأ الأخوة الإسلامية بمعناها الواسع الشامل؛ حيث أن الأخوة هي أخوة في الدين والحرمة، وليست فقط في النسب، والإسلام بذلك يضع تحديداً واسعاً لمفهوم الأخوة أخذت عنه النظريات الحديثة تحت مسمى «

²¹⁵ القرآن. الأنبياء (21: 92).

²¹⁶ ينظر: الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف الإماراتية، نعمة الاتحاد، أبو ظبي، 2015م.

نظريات العلاقات الإنسانية؛ لتقييم مجتمعاً متجانساً قوياً متماسكاً، يسوده الحب والإخلاص.

رابعاً: نصوص القرآن الكريم الدالة على العفو والتراحم وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي:

إنَّ التَّراحمَ والعفو بين الناس يعد قيمة أخلاقية لها قدرها في المجتمع، وسمه إنسانية وحضارية، لها أثرها الكبير في الحياة الاجتماعية، ودورها البالغ في إشاعة روح التضامن والترابط والتكافل بين الناس، كما أنها سبب لنزول رحمت الله، وسبب لتحقيق وحدة النسيج الاجتماعي وتقوية أواصره²¹⁷.

وما خلق الله الخلق إلا ليرحمهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾²¹⁸.

فيعفو المؤمن عن أخيه كما في قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَافِقًا

غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّفِقُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾²¹⁹.

يقول الإمام ابن جرير الطبري: «فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك»²²⁰.

لَهُمْ ﴿لَأَتْبَاعِكَ وَأَصْحَابِكَ، فَسَهَلْتَ لَهُمْ خَلَاتِقَكَ، وَحَسَنْتَ لَهُمْ أَخْلَاقَكَ، حَتَّى احْتَمَلْتُ أَدَى مَنْ نَالَكَ

مِنْهُمْ أَذَاهُ، وَعَفَوْتَ عَنِ الْجُرْمِ مِنْهُمْ جُرْمَهُ، وَأَغْضَيْتَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَوْ جَفَوْتَ بِهِ، وَأَغْلَظْتَ عَلَيْهِ؛ لِتَرْكِكَ

فَفَارِقَكَ، وَلَمْ يَتَّبِعَكَ، وَلَا مَا بُعِثْتَ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِمَهُمْ وَرَحِمَكَ مَعَهُمْ، فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَافِقًا

²¹⁷ ينظر: التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبد اللطيف الجيلاني، الطبعة الأولى، مركز الدراسات والبحوث، القاهرة، 2009، 25.

²¹⁸ (القرآن. هود: 11: 119).

²¹⁹ (القرآن. آل عمران: 3: 159).

²²⁰ ينظر: جامع البيان لتأويل آي القرآن للطبري، 7/ 341.

وقد ذكر صاحب التنوير والتحرير في تفسير الآيات بأن الله ﷻ « أرسل محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بعث للناس كافةً، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغى الشريعة للعالم، وأن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام»²²¹.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾²²²، يقول ابن بطال في هذه الآية: « أن العفو أجمل وأفضل، لما جاء في ثوابه وعظيم أجره، ولما جاء فيه من الترغيب»²²³.

ويقول الطبري: «إن الله لم يزل ذا عفو عن عباده، مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه، فاعفوا، أنتم أيضاً، أيها الناس، عمن أئى إليكم ظلماً، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره»²²⁴.

ويقول ابن جزى في تفسيره للآية الكريمة: « الآية فيها ترغيب في فعل الخير سرّاً وعلانية، وفي العفو عن الظلم بعد أن أباح الانتصار لأن العفو أحب إلى الله من الانتصار، وأكد ذلك بوصفه تعالى نفسه بالعفو مع القدرة.»²²⁵

²²¹ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 4 / 145.

²²² (القرآن. النساء 4: 149).

²²³ ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، 6 / 574.

²²⁴ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 9 / 351.

²²⁵ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، 1 / 214.

وقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾²²⁶، قال القرطبي: «في هذه الآية

ثلاث مسائل: الأولى: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهي؛ فقوله خذ العفو: دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله وأمر بالعرف: صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله وأعرض عن الجاهلين: الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة»²²⁷.

نجد في الآية أنه قد اجتمعت مكارم الأخلاق، في أن العفو عن المسيء، ودفع الأذى بالإحسان، خير وأفضل عند الله تعالى من الانتصار والقصاص، وهذا يدل على ذب الإسلام للعنف، والذي ينجم عنه المفسدة، وتفضيل العفو عن المسيء، الذي يولد الرحمة والإحسان بين الناس.

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾²²⁸ يقول ابن جرير الطبري: «فمن عفا عن

أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادر ابتغاء وجه الله، فأجر عفوهم ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه»²²⁹.

ويقول ابن عطية: «قالت فرقة: إنها نزلت فيبغي المشرك على المؤمن، فأباح الله تعالى له الانتصار منهم دون تعد، وجعل العفو والإصلاح مقرونا بأجر، ثم نسخ ذلك بآية السيف، وقالت هذه الفرقة -

²²⁶ (القرآن. الأعراف 7: 199).

²²⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 309 / 7.

²²⁸ (القرآن. الشورى 42: 40).

²²⁹ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 548 / 21.

وهي الجمهور-: إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه، فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه بنفسه ويجازيه على ظلمه، مثال ذلك: أن يخون الإنسان آخر، ثم يتمكن الإنسان من خيانة الأول، فمذهب مالك رحمه الله ألا يفعل، وهو مذهب جماعة عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»، وهذا القول أنزه وأقرب إلى الله تبارك وتعالى».²³⁰

فقد وصف الله ﷻ المتقين الذين يستحقون الجنة في قوله تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِينَ الْغَيْظَ

وَالْعَٰفِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾²³¹، وجعل من صفاتهم أنهم يكظمون الغيظ، والعفو عن ظلمهم، وفي ذلك يقول الطبري: «بمعنى الصافحين عن الناس، وهم على الانتقام منهم قادرون، وقال قتادة رحمته الله: «قوم أنفقوا في العسر واليسر، والمجهد والرخاء، فمن استطاع أن يغلب الشر بالخير فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فنعمت والله يا ابن آدم الجرعة تجتريها من صبر وأنت مغيظ وأنت مظلوم»²³².

وقد أفاد الشنقيطي رحمته الله في تفسير هذه الآيات بقوله: «وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ، والعفو عن الناس؛ من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثًا على ذلك، ودلت أيضًا: على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به»²³³.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾²³⁴، فقد أشار القرطبي والطبري في هذا الموضوع: «أي أوصى

²³⁰ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، 524 / 7.

²³¹ (القرآن. آل عمران 3: 134).

²³² ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 7 / 214.

²³³ ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج5. ص 487.

²³⁴ (القرآن. البلد 90: 17).

بعضهم بالرحمة على الخلق فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين»²³⁵، وأشار ابن العربي المالكي في تفسير الآية: « أن الرحمة تعني التراحم والتعاطف وهي من أفضل أنواع العدالة، فانظر كيف عدد أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس، بدأ بالعفة التي هي أولى الفضائل، وعبر عنها بمعظم أنواعها وأخص خصاها الذي هو السخاء، ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس، وجاء بلفظة ثم لبعده مرتبته عن الأولى في الارتفاع والعلو، وعبر عن الحكمة به؛ لكونه أم سائر مراتبها وأنواعها ثم رتب عليه الصبر؛ لامتناعه بدون اليقين وآخر العدالة التي هي نهايتها، واستغنى بذكر الرحمة، التي هي صفة الرحمن عن سائر أنواعها كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة»²³⁶.

وما سبق يمكن القول تضافرت جهود علماء المذهب المالكي في توضيح أن العفو والتراحم من أهم المفاتيح التي وصل بها النبي ﷺ إلى قلوب الناس جميعاً، ويكفي مثلاً على ذلك ما وقع من النبي ﷺ في فتح مكة المكرمة مع من آذوه في قريش، حينما سألمهم ما تظنون أني فاعل بكم، فقالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فعفا عنهم، وكان ثمار ذلك دخولهم أفواجاً في دين الله ﷻ.

خامساً: نصوص القرآن الكريم الدالة على « الإصلاح » وآثارها في تحقيق النسيج

الاجتماعي:

آيات القرآن واضحة في الحث على الإصلاح والأخذ على الفساد والمفسدين، وبيان أن الفساد في الأرض من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

²³⁵ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 64 / 20. ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 447 / 24.

²³⁶ ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي، 2 / 406.

مُضْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾²³⁷.

وبالعكس، فالمجتمع الذي يمارس أفراده الإصلاح، والمراجعة، والتقويم، والنقد الذاتي، ويبادرون إلى إصلاح مكامن الخلل، ومحاصرة الفساد، هو المجتمع الذي يحقق الأمن والاستقرار، والحياة مطمئنة.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۗ وَهُوَ

أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾²³⁸.

والفساد نقيض الصلاح، وهو شامل لكل الصور المحرمة من قطع الطريق، وقطع الأرحام، والكذب والغيبة والنميمة، والشائعات، وتكدير السلم، فيدخل في الفساد ارتكاب جميع المعاصي، «لأن العمل بالمعاصي إفساد في الأرض، فلم يخص الله وصفه ببعض معاني الإفساد دون بعض»²³⁹.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾... الفساد هو الخراب. وقال سعيد بن

المسيب²⁴⁰: قطع الدراهم من الفساد في الأرض. قلت: والآية بعمومها تضم كل فساد في أرض أو مال

²³⁷ (القرآن. البقرة 2: 11-12).

²³⁸ (القرآن. البقرة 2: 204-205).

²³⁹ الطبري. جامع البيان (2/ 330-331).

²⁴⁰ سعيد بن المسيب (13 - 94 هـ) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب. قرشي، مخزومي، من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة. جمع بين الحديث والفقہ والزهد والورع. كان لا يأخذ عطاء، ويعيش من التجارة بالزيت. وكان أحفظ الناس لأقضية عمر بن الخطاب وأحكامه حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة. [الأعلام للزركلي 3 / 155؛ وصفه الصفوة 2 / 44؛ وطبقات ابن سعد

أو دين، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.²⁴¹

والإصلاح بالمفهوم الإسلامي يقوم على الالتزام بما أمر الله به، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾²⁴².

قال ابن جزري: «في الآية أسلوب بلاغي له دلالة، وهو الإظهار في موضع الإضمار؛ حيث قامت

لفظة المصلحين مقام الضمير، للدلالة على أن المتمسك بالكتاب حقيقة يكون مصلحاً»²⁴³، ولذلك

يدلل القرآن الكريم على أهمية ممارسة الإصلاح؛ لأنه سبب لدفع الإهلاك عن المجتمعات، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾²⁴⁴.

وقال القرطبي: «أي لم يكن الله ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم

شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط، ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال

في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب»²⁴⁵.

وقال ابن عطية: «ومعنى الآية أن الله تعالى يقيم الحجة على عباده بالرسول، فلا يعذب إلا بعد نذارة،

وبعد أن يتمادى أهل القرى في ظلم وطفغان، والظلم هنا يجمع الكفر، والمعاصي، والتقصير في الجهاد»²⁴⁶.

²⁴¹ تفسيره القرطبي (2/ 14).

²⁴² (القرآن. الأعراف 7: 170).

²⁴³ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري، 53 / 2.

²⁴⁴ (القرآن. هود 11: 117).

²⁴⁵ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 9 / 114.

²⁴⁶ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، 216 / 3.

ووصف سبحانه أهله وخاصته بالصلاح في الدنيا وعدم الفساد، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

بَنَعَلَهَا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾²⁴⁷.

وقرن القرآن بين الإيمان وإصلاح المجتمع والأمن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²⁴⁸.

قال ابن عاشور: «فعل الصلاح في الآية الكريمة، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى؛ لأن الله ما أراد

بشعره إلا إصلاح الناس»²⁴⁹.

والمرسلون في الآية اسم جامع لكل رسول من الله، سواء من البشر، أو من الملائكة، فكل رسول من

الله يدعو للصلاح وينهى عن الفساد.

قال الشنقيطي: «المراد بالمرسلين هنا: المرسلون من بني آدم، مع أن المرسلين يكونون من الآدميين ومن

غيرهم كالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾²⁵⁰.

فمن آمن قلبه بما جاء به الرُّسل الكرام مما وجب الإيمان به، وأصلح عمله بالإخلاص لله تعالى واتباعهم؛

فلا خَوْفٌ عليه فيما يَسْتَقْبِلُ، ولا هو يَحْزَنُ على ما مضى»²⁵¹.

²⁴⁷ (القرآن. القصص 28: 48).

²⁴⁸ (القرآن. الأنعام 6: 48).

²⁴⁹ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 7 / 239.

²⁵⁰ (القرآن. الحج 22: 75).

²⁵¹ العذب النمير للشنقيطي، 1 / 279. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، طبعة مجمع الفقه، تأليف: محمد الأمين بن محمد

المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، مجمع الفقه الإسلامي بجدّة - دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية،

سنة النشر: 1426هـ.

وكذلك تربط نصوص القرآن الكريم بين التقوى والإصلاح وبين الأمن من عذاب الله يوم القيامة،

كما في قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾²⁵².

قال ابن عاشور: «معنى التقوى والإصلاح في الآية أي فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولا يلحقهم رعب ولا فزع».²⁵³

وأيضاً جاءت دعوات الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام لإصلاح واقع مجتمعاتهم، وتقويم اعوجاج

أقوامهم، فهذا نبي الله شعيب عليه السلام يصرح بتلك الغاية، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ

عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَهًا مَّا أَنهَنكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾²⁵⁴.

قال القرطبي في تفسيره للآية الكريمة: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت»، أي ما أريد إلا فعل

الصلاح؛ أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة»²⁵⁵.

وهكذا، امتلأت حياة الرسل ومن اتبعهم مليئة بالجهود الإصلاحية والمواقف الإيمانية، التي تؤكد

حرصهم الشديد على إشاعة الخير وزرع الثقة بين بني البشر في كل زمان ومكان؛ ذلك لأن المنهج الإلهي

²⁵² (القرآن. الأعراف 7: 35).

²⁵³ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 9/ 107، ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 7/ 182.

²⁵⁴ (القرآن. هود 11: 88).

²⁵⁵ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 9/ 76.

يمثل في جوهره دعوة حقيقية للإصلاح، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَىٰ

تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾²⁵⁶ فالرسالات السماوية هي في جوهرها دعوة لإصلاح القلوب والعقول والنفوس

والضمائر والأبدان.

وبين سبحانه، أن الناس في خسارة إلا أهل الإيمان الناصحين بالحق، الداعين إلى الإصلاح، فقال

سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خَسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾²⁵⁷.

وبين سبحانه أن العذاب ينزل على العباد بسكوت أهل الإصلاح عن بيان المنكر، فقال تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾²⁵⁸.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

²⁵⁶ (القرآن. الأنفال 8: 24).

²⁵⁷ (القرآن. العصر 103: 1-3).

²⁵⁸ (القرآن. المائدة 5: 78-79).

قال ابن العربي: « إنها فتنة المناكير بالسكوت عليها، أو التراضي بها، وكل ذلك مهلك، وهو كان داء الأمم السالفة، قال الله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فالناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده.... والناس إذا تظاهروا بالمنكر، فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه فكلهم عاص، هذا بفعله، وهذا برضاه به، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم الذنب بالعقوبة، ولم يتعد موضعه، وهذا نفيس لمن تأمله».²⁶⁰

وقال الظاهر ابن عاشور في معنى الآية: « المسلمون إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول ﷺ، دبّ بينهم الاختلاف، واضطربت أحوالهم، واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء، وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة»²⁶¹.

كذلك يذكر الشوكاني رحمته الله في تفسير الآية: « أي اتقوا فتنة تعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم»²⁶².

ودعا نوح ربه على كافري قومه؛ لأنهم لم يكتفوا بكفرهم، بل تبادوا بإضلال العباد ونشر الفساد قال

²⁵⁹ (القرآن. الأنفال 8: 25).

²⁶⁰ ينظر: أحكام القرآن لابن العربي، 391 / 2.

²⁶¹ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 317 / 10.

²⁶² ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - 1414 هـ، 2 / 299.

تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ 263 .

قال الطاهر ابن عاشور « وفي كلام نوح ﷺ دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر، ولا يهتمون بتأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية، إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحية»²⁶⁴.

ونجد مما سبق اتفاق تفاسير علماء المالكية للآيات الكريمة في أن الإصلاح بهذا المعنى، الذي ورد في النصوص القرآنية، واجب شرعي على كل أفراد المجتمع، ويجب ألا يناط أمره بفتنة من الناس دون سواها؛ لأن الإصلاح واجب على كل الأفراد، والفئات، والطوائف، والأقليات، التي يتكون المجتمع من مجموعها.. غير أن ذلك لا يلغي مجال من الأحوال دور العلماء والباحثين المنظرين لعملية التجديد والإصلاح، فهم هداة الأمة، وحملة مشاعل الأنوار فيها، وعليهم القيام بتعريف الناس كيفية الإصلاح، وأسسها، ومناهجها، وسبلها، حتى لا تحدث فوضى مجتمعية باسم الإصلاح، أو التجديد، أو التطوير. ويجب أن ندرك أن التوقف عن الإصلاح يعدُّ جموداً وثباتاً يؤديان بعد فترة وجيزة من الزمن إلى النكوص للخلف، والتراجع إلى الوراء، ومن هنا تأتي ضرورة وحتمية مواصلة طريق الإصلاح على الصعد الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والدينية كافة؛ للانطلاق بالأمة صوب مواجهة الآفات الاجتماعية والمعوقات الحضارية وصولاً إلى تحقيق النهضة ومجد الأمة الضائع، والتقدم، والارتقاء الحضاري والمعرفي، تلك الأمور، التي غابت عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية حيناً من الدهر ولا بد أن تعود كما أخبر الصادق الصدوق.

²⁶³ (القرآن. نوح 71: 26-27).

²⁶⁴ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 30/ 214.

سادسا: نصوص القرآن الكريم الدالة على « التعاون » وآثارها في تحقيق النسيج الاجتماعي:

الفطرة البشرية داعية إلى الاجتماع، ويعبر الحكماء عن ذلك بقولهم: «الإنسان مدني بطبعه»، وقد فصل ابن خلدون بيان ذلك، فقال: « لا بدّ للإنسان من الاجتماع، وبيان ذلك أنّ الله سبحانه خلقه وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلّا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله، إلّا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادّة حياته منه، ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلّا بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ، وكلّ واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلّا بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجار وفاخوري... فلا بدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كلّ واحد منهم أيضا في الدّفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه... وإذا كان التّعاون حصل له القوت للغذاء والسّلاح للدّفاع، وتمّت حكمة الله في بقاءه وحفظ نوعه، فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للتّوحيّ الإنسانيّ، وإلّا لم يكمل وجودهم وما أَرادَه اللهُ من اِعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم»²⁶⁵.

إذن، فالتعاون سمة في الإنسان لا تستقيم حياته إلا به، إلا أن الشرع قرر أن يكون التعاون أساسه المنهاج الذي يأمرنا بحب الخير والتعاون والتعاطف فيما بينهم، وهو منهاج الله ﷻ، فقال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾²⁶⁶.

²⁶⁵ ابن خلدون. مقدمة. (41- 43) بتصرف يسير

²⁶⁶ (القرآن. المائدة: 5: 2).

يستشهد القرطبي في تفسير معنى التعاون في الآية الكريمة بما قاله الماوردي²⁶⁷: «ندب الله سبحانه إلى

التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله

تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»²⁶⁸.

كما قال ابن بطال: «والنصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسره رسول الله ﷺ أن نصر الظالم

منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه آذاه ذلك إلى أن يقتص منه؛ فمنعك له مما يوجب

عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه، وهو من عجيب الفصاحة،

ووجيز البلاغة»²⁶⁹.

إن القرآن الكريم ربط الإنسان بمجتمعه وجعله ميثاقاً غليظاً في النسيج الاجتماعي، قال تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾²⁷⁰.

²⁶⁷ الماوردي (364 - 450 هـ) هو علي بن محمد بن حبيب الماوردي نسبته إلى بيع ماء الورد. ولد بالبصرة وانتقل إلى بغداد. إمام في

مذهب الشافعي، كان حافظاً له. وهو أول من لقب بـ ((أقضى القضاة)) في عهد القائم بأمر الله العباسي. وكانت له المكانة الرفيعة عند

الخلفاء وملوك بغداد. أتم بالميل إلى الاعتزال. توفي في بغداد. من تصانيفه: ((الحاوي)) في الفقه 20 مجلداً و ((الأحكام السلطانية)) و

((أدب الدنيا والدين))؛ و ((قانون الوزارة))

[طبقات الشافعية 3 / 303 - 314؛ والشذرات 3 / 258؛ والأعلام للزركلي 5 / 146].

²⁶⁸ ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 6 / 10.

²⁶⁹ ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، 57 / 6.

²⁷⁰ (القرآن. التوبة 9: 71).

قال القرطبي: «الآية الكريمة فيها أربعة مسائل:

الأولى: قوله تعالى: « بعضهم أولياء بعض » أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف، وقال في المنافقين « بعضهم من بعض » لأن قلوبهم مختلفة، ولكن يضم بعضهم إلى بعض في الحكم.

الثانية: قوله تعالى: « يأمرن بالمعروف » أي بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك، ينهون عن المنكر عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: « وقيمون الصلاة » تقدم في أول البقرة القول فيه.

الرابعة: قوله تعالى: « ويطيعون الله » في الفرائض « ورسوله » فيما سن لهم. والسين في قوله: « سيرحمهم الله » مدخلة في الوعد مهلة؛ لتكون النفوس تتنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز»²⁷¹.

ومن طبيعة المؤمنين أن يتشاوروا في أمور دينهم ودنياهم، فالشورى من صور التعاون على البر والتقوى، والتي قد تؤدي إلى إشاعة المودة والرحمة بينهم، وتعزيز النسيج الاجتماعي وتربطهم وتعاونهم، قال الله تعالى

في شأن فضل الشورى: ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾²⁷².

قال ابن عطية: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام»²⁷³.

وقال ابن العربي: «المشاورة أصل الدين وسنة الله في العالمين، وهو حق على عامة الخليقة من الرسول

إلى أقل خلق بعده في درجاتهم، واستخراج ما عنده»²⁷⁴.

²⁷¹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 8 / 128.

²⁷² (القرآن. الشورى: 42: 38).

²⁷³ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، 397 / 3.

²⁷⁴ ينظر: بدائع السلك لابن الأزرق (145).

وقال القرطبي: « أي يتشاورون في الأمور.. قال الحسن²⁷⁵: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»

276

وقال ابن العربي: « الشورى ألفة للجماعة ومسيار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا

277

هدوا»

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا

278

حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ

قال الطبري: « وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت، أو صلاة

اجتمع لها، أو تشاور في أمر نزل لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ طاعة

279

منهم لله ولرسوله»

وقال ابن عاشور: « معنى (الأمر) الشأن والحال المهم، و (الجامع) الذي من شأنه أن يجتمع الناس

280

لأجله للتشاور أو التعلم، لإفادة المشاركة والتمكن منه»

وكذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ بتطبيق نظام الشورى مع كل من حوله، قال تعالى:

²⁷⁵ الحسن البصري (21 - 110 هـ) هو الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان أبوه يسار من سبي ميسان، مولى لبعض الأنصار. ولد بالمدينة وكانت أمه ترضع لأم سلمة. رأى بعض الصحابة، وسمع من قليل منهم. كان شجاعاً، جميلاً، ناسكاً، فصيحاً، عالماً، شهد له أنس بن مالك وغيره. [تهذيب التهذيب 2 / 242 - 271؛ والأعلام للزركلي 2 / 242؛ و ((الحسن البصري)) لإحسان عباس]

²⁷⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 16 / 36.

²⁷⁷ ينظر: أحكام القرآن لابن العربي، 67 / 4.

²⁷⁸ (القرآن. النور 24: 62).

²⁷⁹ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 19 / 229.

²⁸⁰ ينظر التحرير والتنوير، 19 / 306.

﴿فِيمَا وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾²⁸¹

قال القرطبي: «عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده»²⁸².

وقال ابن عطية في تفسيره: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه»²⁸³.

إن الشورى أمر يشمل جميع مجالات الحياة وضروري لبناء أي دولة، من خلال مجتمع متفاهم متلاحم ومترابط، فلا يتحقق النسيج الاجتماعي المترابط في أي أمة دون، أن يقوم أولى الأمر باستشارة أولى العلم والإيمان؛ ليعينه على ما فيه خير وصلاح، وخير دليل على ذلك ملكة سبأ في قوله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾²⁸⁴

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على صحة المشاورة، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في آل عمران إما استعانة بالأراء، وإما مداراة للأولياء»²⁸⁵.

«دُم على المشاورة وواظب عليها، كما فعلت قبل الحرب في غزوة أحد، وإن أخطوا الرأي فيها؛ فإن الخير كل الخير في تربيتهم على العمل بالمشاورة؛ فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر

²⁸¹ (القرآن. آل عمران 3: 159).

²⁸² ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 234/4.

²⁸³ ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، 551 / 1.

²⁸⁴ (القرآن. النمل 27: 32).

²⁸⁵ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 181 / 13.

على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر»²⁸⁶.

وقد حرص المغفور له (ياذن الله) الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (طيب الله ثراه)، على تضمين الدستور عدداً من المواد المتعلقة بالمجلس الوطني الاتحادي، والتي تعبر تعبيراً دقيقاً عن نهج الشورى في دولة الإمارات، وفي فكر المغفور له (ياذن الله) الشيخ زايد، الذي كان يطالب دائماً بإتاحة الفرصة أمام كل عضو من أعضاء المجلس؛ ليقول رأيه بصراحة تامة، ويعبر عن مطالب المواطنين واحتياجاتهم بأمانة مطلقة، وكان ﷺ يوجه أعضاء المجلس بالتفاني في خدمة الدولة والتعاون مع جميع مؤسسات الدولة ومع الوزراء؛ لتعزيز دور الدولة وسيادتها، وفي خطابه أمام المجلس الوطني الاتحادي في افتتاح دور الانعقاد العادي الثالث من الفصل التشريعي الثاني للمجلس بتاريخ: (18) نوفمبر (1975م)، قال المغفور له (ياذن الله) الشيخ زايد: «إن شعبنا يؤمن إيماناً راسخاً بحكم الشورى، وقد تمثل ذلك فيما أولاه لكم من ثقة وتقدير وما عقده عليكم من آماني وآمال»²⁸⁷.

²⁸⁶ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 163 / 4.

²⁸⁷ البيان، زايد عزز نهج الشورى والمشاركة السياسية للمواطنين، 24 مايو 2019م، أبو ظبي.

المبحث الثاني

جهود علماء المالكية في بيان أن التمسك بالقرآن سبب في تحقيق النسيج الاجتماعي.

ختم الله الرسائل برسالة محمد، وأنزل عليه خير كتاب منزل، ليكون للعالمين نذيراً، وهادياً وبشيراً،

وسراجاً منيراً، وأمره باتباعه والتمسك به، فقال تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ 288 .

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره للآية الكريمة: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فتمسك يا محمد

بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو

دين الله الذي أمر به، وهو الإسلام» 289 .

والأمر بالتمسك بالقرآن العظيم، والاستقامة عليه، والدعوة إليه، والحذر مما يضاد ذلك كله، لأن

«القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الإسلامية الشاملة للعقيدة والشريعة، والذي اشتمل على بيان العقيدة في

صفائها، وعلى وضع أسس التشريع في مختلف الجوانب التي تمس حياة العباد» 290 .

ومن مظاهر التمسك بالقرآن: الإيمان به، والاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك أن القرآن الكريم

كلام الله تعالى، ووحيه إلى نبيه محمد ﷺ، لدعوة الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا

288 (القرآن. الزخرف 43: 43).

289 تفسير الطبري 191/11.

290 عبد الحي العمراني، هذا القرآن، ص 32.

الْعِلْمُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩١﴾

والإيمان بمتشابهه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ

إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴿٢٩٢﴾

قال الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: «القرآن هو الإمام، فأما هذا المرء فما أذري ما هو؟»²⁹³ والمرء هو

الجدال، فلا هو إمام ولا مأموم، إنما الإمام هو القرآن الكريم.

وقال أيضاً: «إن استطعت أن تتخذ القرآن إماماً فافعل، فهو الذي يهدي إلى الجنة، قيل فالرجل

المحصى يحتتم في الليلة؟ قال: ما أجود ذلك!، قيل: هل يقرأ في الطريق؟ قال: الشئ في اليسير، وأما الذي

يديم ذلك فلا»²⁹⁴

والعمل به، بتحليل حاله، وتحريم حرامه، والالتزام الكامل بما دل عليه، وأرشد إليه، وعدم تجاوز ذلك

أو مخالفته أو الزيادة عليه.

وكان منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الصحابة القرآن: تلازم العلم والمعنى والعمل؛ فلا علم جديد إلا بعد

²⁹¹ (القرآن. الحج: 54).

²⁹² (القرآن. آل عمران: 7).

²⁹³ رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (510/2).

²⁹⁴ الجامع لابن أبي زيد (ص: 195).

فهم السابق والعمل به²⁹⁵، وفقه أصحابه رضي الله عنهم شرع الله وسنة رسوله، فكانوا لا يتعجلون مجرد التلاوة دون تدبر، بل كانوا لا يجاوزون عشر آيات حتى يعلموا معانيهن والعمل بهن، وذكر القرطبي ما يؤيد ذلك في تفسيره: أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « إذا صعب علينا حفظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به»²⁹⁶.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من قوله: « كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به»²⁹⁷.

قراءته وتدبره: أي المداومة على قراءته، وعدم هجره، مع تدبر معانيه، وتأمل مرامييه، والعلم بعقائده، ومعرفة أحكامه، وشرائعه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾²⁹⁸،

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾²⁹⁹، وقال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾³⁰⁰

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: «وفي ذلك إدماج الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه ولمن

²⁹⁵ ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، 6 / 256.

²⁹⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 1 / 75.

²⁹⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 1 / 76.

²⁹⁸ (القرآن. الفرقان 25: 30).

²⁹⁹ (القرآن. محمد 24: 24).

³⁰⁰ (القرآن. ص 38: 29).

تمسك به واهتدى بهديه من المؤمنين، وأن كل آيات القرآن مبارك فيها؛ لأنها: إما مرشدة إلى خير، وإما صارفة عن شر وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل ولا بركة أعظم من ذلك»³⁰¹.

وقال الطبري: « ليتدبروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعضوا ويعملوا به، وليعتبر أولوا العقول، والحجة ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد، وسبيل الصواب»³⁰².

وبين العلامة المفسر الشنقيطي رحمته الله عاقبة من لم يتدبر، فقال: «ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم - أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها - فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات - إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر... وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه، وتعلمه، والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين... فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به، وبالسنن الثابتة المبينة له، من أعظم المناكير وأشنعها»³⁰³.

حفظه في الصدور والسطور، من الضياع أو الزيادة أو النقص أو الإهمال.

احترامه وتوقيره، والخشوع والإنصات عند سماعه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا﴾

³⁰¹ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 24 / 251.

³⁰² ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 21 / 190.

³⁰³ ينظر: أضواء البيان للشنقيطي، 7 / 257.

لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٠٤﴾ .

الدعوة إليه، وإلى ما تضمنه من العقائد والشرائع والأحكام والآداب والأخلاق، فهو الكتاب الوحيد المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من أي وجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٠٥﴾ .

وقال الحق سبحانه ﷻ: ﴿كَذَّبُوا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذَكَرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠٦﴾ ، يقول الطاهر ابن عاشور: «إن الله أنزله إليك لا ليكون في صدرك حرج، بل لينشرح

صدرك به؛ فلن يجد حملة المنهج القرآني مشقة في فهمه وإبلاغه، ولا حرجاً في الدعوة إليه والعمل به، أياً

كان الزمان أو المكان»³⁰⁷ .

وقال ابن العربي: «الحج في الآية هو الضيق، وقيل: هو الشك، وقيل: هو التبرم، وإلى الأول يرجع:

فإن كان هو الشك فقد أثار الله فؤاده باليقين، وإن كان التبرم فقد حجب الله إليه الدين، وإن كان الضيق

فقد وسع الله قلبه بالعلوم، وشرح صدره بالمعارف، وذلك مما فتح الله عليه من علوم القرآن»³⁰⁸ .

التخلق بأخلاقه، فكتاب الله تعالى نور، وكله خير، وفضله، وخلق كريم لمن أراد التخلق بأخلاقه والتأدب

³⁰⁴ (القرآن. الأعراف 7: 204).

³⁰⁵ (القرآن. فصلت 41: 42).

³⁰⁶ (القرآن. الأعراف 7: 2).

³⁰⁷ التحرير والتنوير. ج 8. ص 13.

³⁰⁸ أحكام القرآن. ج 2. ص 302.

بآدابه. وكان ﷺ صاحب الخلق الكامل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾³⁰⁹. يقول الآجري

ﷺ: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمراة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح

فيه، فما حذر مولاة حذر، وما خوَّف به من عقابه خافه، وما رغب فيه مولاة رغب فيه ورجاه»³¹⁰.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^{١٥} يَهْدِي بِهِ اللَّهُ

مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{١٦}³¹¹.

يقول الطبري في معنى الآية: «يقول جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أنار لكم به معالم

الحق، ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله، وحلاله وحرامه،

وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، يبين للناس جميع ما بهم الحاجة إليه من أمر

دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقه من باطله»³¹².

وقال القرطبي: «المعنى يهدي به الله من اتبع رضوانه أي: ما رضيه الله، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي:

طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة، والمؤمنة من كل مخافة»³¹³.

³⁰⁹ (القرآن. القلم 68: 4).

³¹⁰ ينظر: أخلاق حملة القرآن، أبي بكر محمد الحسين الآجري البغدادي، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، العراق،

1429هـ، 2008م، الطبعة الأولى، 39.

³¹¹ (القرآن. المائدة 5: 15 – 16).

³¹² ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 10/144.

³¹³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 7/6.

فهذه هي نتيجة التمسك بالقرآن الكريم، أن يخرج الأفراد والمجتمعات من ظلمات الكفر والجهل والشر والفساد والظلم، إلى نور الإيمان والخير والعلم والصلاح والعدل؛ لتحقيق النسيج الاجتماعي.

يقول العلامة الشنقيطي: « والتمسك بالقرآن الكريم، يكون بالإيمان بكل ما ورد فيه من أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، ولا يصرفون شيئاً من عبادتهم إلى سواه تعالى، ولا يلحدون في أسمائه، فلا يصفونه إلا بما وصف به نفسه تعالى، أو وصفه به رسول الله ﷺ ويعتقدون أنه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، ويعتقدون أنه ﷺ هو الإله الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، نبياً لا يعبد ورسولاً لا يكذب بل يطاع ويتبع»³¹⁴.

ولقد تمسك الصحابة بالكتاب، فتغير حالهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾³¹⁵، فقد أخرج القرآن مجتمع الصحابة من بين جنبات الصحراء العربية القاسية، ومن بين حياة البداوة والوثنية، إلى ذلك المجتمع السامي في أفكاره، المتحضر في سلوكه، الرفيع في أخلاقه، المتفاني في خدمة دينه، القوي في إيمانه، ولقد شهد الله ﷻ لذلك المجتمع بأنه خير مجتمع أخرج إلى الوجود الإنساني، فقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾³¹⁶.

³¹⁴ ينظر: التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، تأليف: عبد الله بن عمر محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - عام 1421هـ، 11.

³¹⁵ (القرآن. الأعراف 7: 170).

³¹⁶ (القرآن. آل عمران 3: 110).

يقول الطبري: « اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فقال

بعضهم: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وخاصة، من أصحاب رسول الله ﷺ ..

وقال آخرون: معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم جل ثناؤه بها؛

فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، أخرجوا للناس

317

في زمانكم»

فهذه الآية تقرر أن مجتمع الصحابة خير من أخرج إلى الوجود، وفاعل الإخراج هنا هو القرآن وليس

غيره، فهو الذي أخرج مجتمع الصحابة، ولديه القدرة على إخراج نماذج فردية واجتماعية راقية وخيرة.

ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾: «فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى الترمذي عن يمز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله»، وقال:

318

هذا حديث حسن .

الثانية: وإذا ثبت بنص التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم، فقد روى الأئمة من حديث عمران بن حصين

317 ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 7 / 101.

318 أخرجه الترمذي في كتاب التفسير - باب تفسير (القرآن. آل عمران، 226 / 5، برقم: 3001. وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد، 1433 / 2، برقم: 4288، وأحمد: 447 / 4، برقم: 20029، وأخرجه كذلك عبد الرزاق في التفسير (1 / 45)، وعبد بن حميد (409)، والدارمي في السنن (2760)، والزهد لابن المبارك (382)، والطبري في التفسير (4 / 45)، والروائي في مسنده (924، 921)، وابن أبي حاتم في التفسير (4017)، والطبري في المعجم الكبير (19 / أرقام 1012، 1023، 1024، 1025) وفي الأوسط (1415)، والحاكم (4 / 94)، وأبو القاسم بن بشران في مجلس إملاءه (625)، والبيهقي في السنن الكبرى (9 / 5)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (10 / 115 و 13 / 82 و 54 / 261)، والرافعي في التندوين في أخبار قزوين (2 / 262) من طرق عن جئ بن حكيم عن أبيه عن جدّه به.

عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»³¹⁹، وهذا يدل على أن أول

هذه الأمة أفضل ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا

ذلك واتصفوا به»³²⁰.

فتلك هي مهمة القرآن الكريم التي أنزل من أجلها، فالقرآن الكريم هو الذي أخرج مجتمع الصحابة، وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس، ونحن نملك في عصرنا هذا أدوات للإدراك والتأثر والفهم والعمل، وما كان لدى الصحابة مثلها، والفترة الإنسانية لا تزال فيها بذرة الخير أياً كان وقتها وزمانها، ولا يزال لديها الاستعداد؛ لتكوين نسيج اجتماعي بالقبول للانقياد إلى الحق والخير.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِيْلِخْلِقِ اللَّهِ

ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيْمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾³²¹

قال ابن عاشور مفسراً: «كون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه، أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيْمِ﴾ فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور، وصالح لجميع الأمم، ولا يستتب

³¹⁹ أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، 171 / 3، رقم: 2651، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، 1964 / 4، رقم: 2535.

³²⁰ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 4 / 162.

³²¹ (القرآن. الروم 30: 30).

ذلك إلا إذا بنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية، ليكون صالحاً للناس كافة، وللعصور عامة، وقد

اقتضى وصف الفطرة أن يكون الإسلام سمحاً يسراً، لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة»³²².

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ

يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾³²³.

يقول الطبري رحمه الله: «في الآية الكريمة أنه تعالى لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض؛ لهدم ما ذكر، من دفعه

تعالى ذكره بعضهم ببعض، وكفه المشركين بالمسلمين عن ذلك: ومنه كفه بعضهم التظالم كالسلطان، الذي

كف به رعيته عن التظالم بينهم، ومنه كفه لمن أجاز شهادته بينهم بعضهم عن الذهاب بحق من له قبله

حق، ونحو ذلك. وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض، لولا ذلك لتظالموا، فهدم القاهرون صوامع

المقهورين وبيعهم وما سمي جل ثناؤه، ولم يضع الله تعالى دلالة في عقل على أنه عني من ذلك بعضاً دون

بعض، ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بينته قبل

لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا»³²⁴.

وأمر القرآن الكريم بالعمل والعطاء، الذي يؤدي إلى تحقيق نسيج اجتماعي مترابط ومتكافل، قال

تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾³²⁵ (١٠٥) فسر ابن عاشور الآية الكريمة وقال: «إن الأمر بالعمل في الآية الكريمة جاء

³²² ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 22 / 89.

³²³ القرآن. الحج: 22: 40).

³²⁴ القرآن. الحج: 22: 40). ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 18 / 646..

³²⁵ القرآن. التوبة: 9: 105).

مطلقاً، فيشمل كل ما فيه مصلحة الإنسان والكون والحياة، سواء مصلحة دينية أو دنيوية، بقصد مرضاة الله ورسوله، ولأن الأمر من الله سبحانه لا يكون بعمل غير صالح، والمراد بالعمل ما يشمل العمل النفساني من الاعتقاد والنية، وإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليب»³²⁶.

فيؤخذ الاعتقاد الصحيح من كتاب الله وسنته، ومما أجمع عليه سلف الأمة، فالتمسك بهذه السبل يهدي إلى الطريق الصحيح وتمنع التفرق والتعصب، فقد قال ابن عبد البر رحمه الله: «ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه، يُسلم له ولا يُناظر فيه، ولا يُناقش»³²⁷.

وفي سياق الترابط والتكافل لتحقيق النسيج الاجتماعي قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾³²⁸، قال القرطبي: «هو أمر القرآن الكريم لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي ليعن بعضهم بعضاً، وتعاونوا على أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه»³²⁹.

وقال ابن عاشور في تفسيره للآية: «أي ليعن بعضهم بعضاً على البر والتقوى، وأن فائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك حلقة للأمة»³³⁰.

³²⁶ ينظر: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ للطاهر بن عاشور، 119/12.

³²⁷ ينظر: جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن حجر، 2 / 943.

³²⁸ (القرآن. الإسراء: 17: 70).

³²⁹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 6 / 10.

³³⁰ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 6 / 88.

وقد أمر الله تعالى نبيه بالتمسك بالقرآن الكريم لما فيه من هداية وإصلاح، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ

بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾³³¹ ، يقول ابن عاشور: «وهو هنا طلب الثبات على

التمسك بما أوحى إليه، وفي قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يفيد أن الرسول ﷺ راسخ في الاهتداء

إلى مراد الله تعالى، كما يتمكن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه ولا خشية

الضلال في بنياته»³³².

وهذه الحقيقة التي يجب أن نتداركها جميعاً عند الحديث عن أثر التمسك بالقرآن الكريم في إصلاح

مجتمعنا وتحقيق نسج اجتماعي قوي، فالقرآن لديه القدرة إعادة تشكيل مجتمعنا وصياغته؛ ليكون أقرب

إلى الصلاح، والخير، والفضيلة، فالمشكلة تكمن في طريقة تعاملنا مع كتاب الله، فالكثير من المسلمين لم

يسلكوا طرق خاطئة في تعاملهم مع كتاب الله، فلم ترق حياتهم، ولم تنصلح مجتمعاتهم.

³³¹ (القرآن. الزخرف 43: 43).

³³² ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 26/ 220.

المبحث الثالث

جهود علماء المالكية في بيان لزوم الجماعة من خلال نصوص القرآن في تحقيق النسيج

الاجتماعي.

أوجب الله تعالى الانتماء إلى جماعة المسلمين، وعدم مفارقتهم، والنهي والتحذير من الفرقة، فإن الله ﷻ جمع هذه الأمة على الهدى، وألف بين قلوب أفرادها، وذلك باتباع النور الذي أنزل على سيد الخلق محمد ﷺ، والخير الذي جاء به، لتحقيق نسيج اجتماعي مترابط على ما جاء به القرآن الكريم من الحق والهدى والصراط المستقيم.

ولعل من استخدام ضمير الجميع في سورة الفاتحة، والتي هي من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بها كاملة، إشارة إلى ضرورة الجماعة، كقوله: ﴿نَعْبُدُكَ﴾، ﴿نَسْتَعِينُكَ﴾، ﴿أَهْدِنَا﴾، فاستخدام ضمائر الجماعة، والمتكلم مفرد، إشارة صريحة إلى أهمية الجماعة في الإسلام، وفيه إشارة إلى غاية الاجتماع، وهي تحقيق العبادة والاستعانة والهداية، فكل اجتماع يحقق هذه الأصول الثلاثة أو أحدها، أو ما تفرع عنها، فهو المراد.

ومقصد لزوم الجماعة هو مصلحة المجتمع؛ حيث يقول القرطبي في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾³³³ هو أن الحاجة إلى

³³³ (القرآن. النور. 24: 62).

تجمع الناس فيه إذاعة مصلحة، من إقامة سنة في الدين، أو لترهيب عدو باجتماعهم وللحروب»³³⁴.

وقال الله ﷻ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾³³⁵.

قال القرطبي رحمه الله في الآية الكريمة: «إن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة؛ لأن الفرقة هلكة، والجماعة نجاه، روي عن عبد الله بن مسعود رحمه الله في الآية الكريمة: قال: حبل الله هو الجماعة، ومعنى نهيته تعالى عن الفرقة في قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي لا تفرقوا في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وبعد أن أمرهم سبحانه بالجماعة والتمسك بها إذ به منعتهم وأمنهم، نهاهم عن الفرقة؛ فقال ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي: لا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله ﷺ والانتهاى إلى أمره، فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين، هذا معنى الآية على التمام، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور في موضعه من أصول الفقه»³³⁶.

وقال ابن عبد البر المالكي: «وقد اختلف في معنى حبل فقيل: القرآن، وقيل: الجماعة والخلافة، والمعنى في ذلك متداخل لأن كتاب الله يأمرنا بالائتلاف، وينهى عن الفرقة والاختلاف، وقد ذكرنا في التمهيد

³³⁴ ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 12 / 297.

³³⁵ (القرآن. آل عمران 3: 103).

³³⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 4 / 151.

من قال من العلماء بالقولين جميعاً، وقد روي عن بن مسعود القولان جميعاً»³³⁷.

ويقول ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾: «إنه تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفافهم

على دين الله ووصاياه وعهوده بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقى إليهم منقذ لهم»³³⁸.

ويقول الإمام الطبري في تأويل الآية الكريمة: «وتعلقوا بأسباب الله جميعاً، وتمسكوا بدين الله الذي أمركم

به وعهده الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله»³³⁹.

والأمر بالجماعة في القرآن الكريم يكون هو اجتماع على الدين وعلى كلمة الحق وطاعة الله ورسوله،

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ﴾³⁴⁰.

يقسم الله تعالى في السورة السابقة أن ابن آدم في خسارة مستمرة، ويستثنى من ذلك فئة واحدة هي

فئة المؤمنين الذين عملوا الصالحات والذين اتصفوا بصفتين: هما التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإن

الملفت للنظر في السورة السابقة أن القرآن الكريم لم يستثن المؤمن وحده بل استثنى المؤمنين، مما يدل على

أن النجاة من الخسارة لا تتحقق بالإيمان والعمل الصالح فقط بل تتحقق بشيء آخر مع الإيمان والعمل

الصالح هو أن يكون المسلم مع إخوانه المؤمنين.

قال القرطبي —مبيناً أن الاجتماع على التواصي بالحق—: «وفي هذا رد على كل مدعٍ مطالب باجتماع

³³⁷ ينظر: الاستنكار لابن عبد البر المالكي، 530 / 2.

³³⁸ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 30/4.

³³⁹ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 4 / 21.

³⁴⁰ القرآن. العصر (103: 1-3).

الأمة لمجرد الاجتماع والسكوت عن باطل المخالف من أهل الأهواء وترك الإنكار عليه في بدعته حتى لا يتعكر صفو هذا الاجتماع أو التقارب المزعوم، فأوجب الله تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا، والدين، والسلامة من الاختلاف»³⁴¹.

وعند التأمل في آخر الآية (وَلَا تَفَرَّقُوا) أمر من الله ﷻ بأن لا تفرقوا عن دين الله، وعهده الذي عهد إليكم في كتابه؛ من الائتلاف، والاجتماع على طاعته، وطاعة رسوله ﷺ، والانتهاج إلى أمره.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾³⁴².

قال الطبري: «يقول جل ثناؤه: فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين، في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم. وعن ابن عباس، قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله»³⁴³.

وقال الإمام عبد الله بن المبارك ﷺ في فضل التمسك بالجماعة:

«إن الجماعة جبل الله فاعتصموا

³⁴¹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 4 / 151.

³⁴² (القرآن. آل عمران 3: 105).

³⁴³ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 7 / 93.

منه بعروته الوثقى لمن دانا

كم يدفع الله بالسلطان معضلة

في ديننا رحمة منه ودينان

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل

وكان أضعفنا نخباً لأقوانا»³⁴⁴.

ويقول ابن عاشور: «إن التفرق والاختلاف إذ تكثر النزعات والنزعات وتنشق الأمة بذلك انشقاقاً شديداً، وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد»³⁴⁵.

وقال تعالى أمراً بلزوم الجماعة ونهاياً عن الفرقة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾»³⁴⁶.

قال القرطبي رحمته: « هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم، فإنه لما نهي وأمر حذر هنا عن إتباع غير

سبيله، فأمر فيها بإتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف»³⁴⁷.

³⁴⁴ ينظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني، الطبعة الثانية، الناشر: مؤسسة قرطبة، 1414هـ، 1993م، 231 / 1.

³⁴⁵ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 4 / 37.

³⁴⁶ (القرآن. الأنعام 8: 153).

³⁴⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 7 / 119.

وقال الطبري: « وهذا الذي وصاكم به ربكم، وأمركم بالوفاء به، يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده، فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه، ولا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات فيشتت بكم، إن اتبعت السبل المحدثه، التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، واتباعكم إياها عن طريقه ودينه، الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلك»³⁴⁸.

وروى الطبري بإسناده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾³⁴⁹ وقوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾³⁵⁰ ونحو هذا في القرآن الكريم، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله³⁵¹.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾³⁵².

قال ابن عاشور على هذه الآية: «إنها أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام،

³⁴⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 12 / 229.

³⁴⁹ (القرآن. الأنعام 8: 153).

³⁵⁰ (القرآن. الشورى 42: 13).

³⁵¹ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 8 / 88.

³⁵² (القرآن. النور 24: 62).

ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمروا عليهم أميراً؛ فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين؛ فهو في مقام النبي ﷺ فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه؛ لأنه لو جعل أمر الانسلاخ لشهوة الحاضر لكان ذريعة؛ لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة، التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه كاجتماع المجالس النيابية والقضائية والدينية، أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلا لعذر واستئذان، فهذه الآيات وغيرها - مما جاء في معناها - واضحة الدلالة، وكلها تهدف إلى منع التفرق في الآراء والمعتقدات»³⁵³.

وهذه الاجتماع ليس مقصودا بذاته، بل هو اجتماع على الدين، اجتماع على تحقيق مقصد العبادة والاستعانة والهداية، وما يتفرع منهم من أوامر الدين المختلفة، ورحم الله الإمام القرطبي إذ بيّن الأساس، الذي ينبغي أن يكون عليه الاجتماع وبه تتحقق وحدة الصف؛ فيقول: « فأوجب الله تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة والنظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف»³⁵⁴.

ويتّضح مما سبق أن كل النصوص القرآنية مؤداها واحد، فالائتلاف والجماعة لا تتحقق إلا بوحدة المعتقد المنهج والسلوك، فالتمسك بالقرآن الكريم، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله ﷺ، مما ينتج عنه تألف المسلمين واجتماعهم، وتربطهم، وتماسك مجتمعهم، وعندها يتحقق للأمة نسيج اجتماعي مجتمع على الحق ويسير على الصراط المستقيم الذي وصاهم ربهم به، وقد جاء الأمر بلزوم السواد

³⁵³ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 306 / 19.

³⁵⁴ ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 105 / 4.

الأعظم من الأمة كعلامة من علامات الحق، فالفرقة تقع في الأمة حينما تتعدد المناهج وتتعدد الطرق، لذلك بين الله ﷻ لهم أن طريق الحق واحد، وأن السبيل إلى الاجتماع واحد، وهو السير على الصراط المستقيم، وإذا لم تسلك الأمة هذا السبيل وتفرقت بهم السبل، فإن تلك السبل ستتخطفهم ويتشعبوا في الضلالات والبدع.

ويلاحظ الباحث مما سبق جهود فقهاء المذهب المالكي الأجلاء في توضيح أهمية لزوم المنهج الصحيح، الذي يؤدي إلى اجتماع كلمة المسلمين وتآلفهم، هو سبب رئيس في تحقيق نسيج اجتماعي متحد على كلمة الحق، وعلى نهضة الوطن، فإننا نلاحظ العبارة الدقيقة، التي استعملها علماء المالكية ﷺ، في قول: «والاجتماع على كلمة الحق»؛ فإنه بدون هذا الضابط لا يكون الاجتماع صحيحاً، وأيضاً تبين حرصهم على جمع الكلمة، ووحدة الصف، وتأليف القلوب، وعدم الفرقة والخلاف، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة، والتمسك بجماعة المسلمين واتباعهم.

المبحث الرابع

جهود علماء المالكية في ترسيخ مسألة السمع والطاعة من خلال نصوص القرآن في تحقيق

النسيخ الاجتماعي

من وسائل تحقيق النسيخ الاجتماعي، هو اجتماع على إمام واحد، وعدم منازعة الأمر أهله، فيجب مبايعة الإمام، والسمع والطاعة له في المعروف، ويجمع تعريفات الإمام عند المالكية قول الأبي ³⁵⁵: «الإمامة ولاية عامة في الدين والدنيا توجب طاعة موصوفها في غير منهي لا بمعجزة. فب (عامّة) يخرج القضاء ونحوه. و (لا بمعجزة) يخرج النبوة».³⁵⁶

والبيعة هي أعظم العقود، قال ابن العربي موضحاً تبويب مالك في موطئة ما جاء في البيعة: «عقد مالك ³⁵⁷ هذا الباب؛ لأنه أعظم عقود الإسلام التي أمر الله بالوفاء بها قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ³⁵⁸. وعلى هذا فيحرم نقض بيعته ³⁵⁹، ويحذر أشدّ التحذير من ذلك لما فيه من الوعيد الشديد والفساد العريض.

³⁵⁵ هو أبو عبد الله محمد بن خليفة بن محمد التونسي المالكي عرف بالأبي. أخذ عن: ابن عرفة ولازمه. وأخذ عنه: ابن ناجي وأبو زيد الثعالبي والقلشاني. من مؤلفاته: إكمال إكمال المعلم شرح مسلم، وله شرح على المدونة. توفي: 823هـ. ينظر: توشيح الديباج وحبلىة الابتهاج للقراني (204). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي (125/2). شجرة النور الزكية لابن مخلوف (59/2).

³⁵⁶ إكمال إكمال المعلم (489/6).

³⁵⁷ القرآن. المائدة: 5: ١).

³⁵⁸ القيس لابن العربي (334/23) ضمن موسوعة شروح الموطأ. وينظر: المفهم للقرطبي (53/4).

³⁵⁹ ينظر: ندوة البيعة والخلافة في الإسلام وزارة الأوقاف المغربية (242/1).

ويتبين ذلك بفعل الصحابة فهذا ابن عمر رضي الله عنهما: «لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يَنْصَبُ لَهُ الْقِتَالَ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ، وَلَا يَبَايِعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا كَانَتْ الْفَيْصَلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ».³⁶⁰

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾³⁶¹ «أمرنا الله صلى الله عليه وسلم

بطاعته وطاعة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وطاعة أولي الأمر، ويفسر محمد الطاهر ابن عاشور معنى الطاعة أنها: «اسم للطوع الذي هو مصدر طاع يطوع، بمعنى انقاد، وفعل ما يؤمر به عن رضا دون ممانعة، فالطاعة ضد الكره، ويقال: طاع وأطاع، وتستعمل مجازاً في قبول القول، ومنه ما جاء في الحديث فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم، ومنه قوله تعالى: ولا شفيح يطاع أي: يقبل قوله، وإلا فإن المشفوع إليه أرفع من الشفيح، فليس المعنى أنه يمثل إليه، والطاعة هنا مستعملة في هذا المعنى المجازي وهو قبول القول».³⁶²

قال علماء المالكية: «في هذه الآية الأمر بطاعة ولاية الأمر وأن الواجب على جميع الخلق طاعتهم في أمور الدين والدنيا»³⁶³.

وقال الطبري في تفسير الآية الكريمة: «هذا أمرٌ من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى، وبعد

³⁶⁰ رواه البخاري كتاب: الفتن باب: إذا قال عند القوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه (7111). وينظر: شرح البخاري لابن بطال على صحيح البخاري (56/10)، ندوة البيعة والخلافة في الإسلام وزارة الأوقاف المغربية (340/1).

³⁶¹ (القرآن: النساء: 4: 59).

³⁶² ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور، 8 / 23.

³⁶³ ينظر: المحرر الوجيز ابن عطية، 4 / 110، وأحكام القرآن لابن العربي المالكي، 2 / 218 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 6 / 428 والتسهيل لابن جزي، 1 / 197 والتحرير والتنوير لابن عاشور، 4 / 163.

وفاته باتباع سنته، وذلك أن الله عمّ بالأمر بطاعته، ولم يخص بذلك في حال دون حال، فهو على العموم حتى يخص ذلك ما يجب التسليم له. واختلف أهل التأويل في ﴿أُولَى الْأَمْرِ﴾ الذين أمر الله عباده بطاعتهم والتسليم لهم في هذه الآية؛ فقال بعضهم: هم الأمراء، وقال آخرون: هم أهل العلم والفقهاء، وقال آخرون: هم أصحاب محمد ﷺ، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: هم الأمراء والولاة، فإذا كان معلومًا أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بطاعة ذوي أمرنا وهم الأئمة ومن وُلّوه المسلمين، دون غيرهم من الناس، وإن كان فرضًا القبول من كل من أمر بترك معصية الله ودعا إلى طاعة الله، وأنه لا طاعة تجب لأحد فيما أمر ونهى فيما لم تقم حجة وجوبه، إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده بطاعتهم فيما أمروا به رعيته مما هو مصلحة لعامة الرعية، فإن على من أمره بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن الله معصية»³⁶⁴.

ويقول القرطبي في الاستدلال على وجوب السمع والطاعة للإمام من خلال الآية: «طاعتهم فرع وجودهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»³⁶⁵.

ويقول ابن بطلال: «قال المهلب في الآية: «هذا يدل على وجوب طاعة السلطان وجوبًا محملاً؛ لأن في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله، فمن ائتمر لطاعة أولي الأمر لأمر الله ورسوله بذلك فطاعتهم واجبة فيما رأوه من وجوه الصلاح»»³⁶⁶.

وقال الإمام القرطبي: «تقدم هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً، وامتنثال أوامره واجتناب

³⁶⁴ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 8 / 496.

³⁶⁵ ينظر: الذخيرة للقرطبي، 23 / 10.

³⁶⁶ ينظر: شرح البخاري لابن بطلال، 209 / 8.

نواهيته، ثم بطاعة رسوله ثانيا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأُمراء ثالثاً»³⁶⁷، وكذلك ما قاله ابن أبي

زيد القيرواني³⁶⁸: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم»³⁶⁹.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾³⁷⁰

فبين القرطبي أن هذه الآية أصل في هذه المسألة فقال: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له

ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة»³⁷¹.

وقال ابن عاشور³⁷²: «لما أمر الله الأمة بالحكم بالعدل عقب ذلك بخطابهم بالأمر بطاعة الحكام ولاة

أمورهم؛ لأن الطاعة لهم هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكامهم، فطاعة الرسول تشتمل على

احترام العدل المشروع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور تنفيذ للعدل، وأشار بهذا التعقيب إلى أن الطاعة

المأمور بها هي الطاعة في المعروف، ولهذا قال علي³⁷³: حق على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانة،

فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا؛ فإن طاعة الرسول³⁷⁴ مساوية لطاعة الله؛ لأن

الرسول هو المبلغ عن الله، فلا يتلقى أمر الله إلا منه، وهو منفذ أمر الله بنفسه، فطاعته طاعة تلق وطاعة

امتثال؛ لأنه مبلغ ومنفذ، بخلاف أولي الأمر فإنهم منفذون لما بلغه الرسول فطاعتهم طاعة امتثال خاصة،

³⁶⁷ ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 5/ 224.

³⁶⁸ هو عبد الله أبو محمد بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني، ولد بالقيروان بتونس سنة 310 هـ الموافق لـ 922م، وهو من أعلام المذهب المالكي. وقد لُقِّب بـ مالك الأصغر، وكان إمام المالكية في وقته، وأشهر مصنفاته كتاب الرسالة، وتوفي سنة 386 هـ الموافق لـ 996م، وعمره 76 سنة. ينظر: سير أعلام النبلاء، 10 / 17.

³⁶⁹ ينظر: الرسالة، 80.

³⁷⁰ (القرآن. البقرة 2: 30).

³⁷¹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن 395 / 1 وأضواء البيان الشنقيطي، 70 / 1.

ولذلك كانوا إذا أمرهم بعمل في غير أمور التشريع، يسألونه أهذا أمر أم رأي وإشارة، وقوله:

﴿وَأُولَى الْأَمْرِ﴾ يعني ذويه وهم أصحاب الأمر والمتولون له، والأمر هو الشأن، أي ما يهتم به من الأحوال

والشئون، فأولو الأمر من الأمة ومن القوم هم الذين يسند الناس إليهم تدبير شئوهم ويعتمدون في ذلك

عليهم، فيصير الأمر كأنه من خصائصهم، فلذلك يقال لهم: ذوو الأمر وأولو الأمر، ويقال في ضد ذلك:

ليس له من الأمر شيء»³⁷².

وأما معنى أولى الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ وَلَوْ رَدُّوهُ

إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا³⁷³.

يقول القرطبي: «هم الولاة الذين يلوون في الحرب عليهم... قال ابن زيد في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ

أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ الآيات، قال: الولاة الذين يُلُون في الحرب عليهم، الذين يتفكرون

فينظرون لما جاءهم من الخبر: أصدق، أم كذب؟ أباطل فيبطلونه، أو حق فيحققونه؟ قال: وهذا في الحرب،

وقرأ: أَذَاعُوا بِهِ، ولو فعلوا غير هذا: وردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم، الآية، والبعض الآخر

يقول إن ﴿أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ هم علماء الفقه والدين، وعن ابن جريج

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾، حتى يكون هو الذي يخبرهم ﴿وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾؛ أي أولى الفقه

³⁷² ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 5/ 97.

³⁷³ (القرآن. النساء: 4: 83).

في الدين والعقل»³⁷⁴.

أما أبو جعفر الطبري يفسر معنى ﴿أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ في الآية الكريمة: «بأنهم الأمراء، حتى يكون رسول الله ﷺ أو ذوو أمرهم هم الذين يتولون الخبر عن ذلك، بعد أن ثبتت عندهم صحته أو بطوله، فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان باطلاً، لعلمه بحقيقة ذلك الخبر، الذي جاءهم به، والذين

يبحثون عنه ويستخرجونه»³⁷⁵.

ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير: «أن ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ في الآية هم كبراء المسلمين وأهل الرأي، وهم خاصة أولي الأمر من المسلمين؛ أي يردونه إلى جماعة أولي الأمر؛ فيفهمه الفاهمون من أولي الأمر»³⁷⁶.

قال الإمام مالك في ذلك: «أولو الأمر: أهل القرآن والعلم؛ يعني أهل العلم بالقرآن والاجتهاد. إذن قوله ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ في الآيات: عني ذويه وهم أصحاب الأمر والمتولون له، والأمر هو الشأن، أي ما يهتم به من الأحوال والشئون، فأولو الأمر من الأمة ومن القوم هم الذين يسند الناس إليهم تدبير شئوهم ويعتمدون في ذلك عليهم، فيصير الأمر كأنه من خصائصهم، فلذلك يقال لهم: ذوو الأمر وأولو الأمر»³⁷⁷.

فيجب السمع والطاعة لولاة أمر البلاد بأن لا يعيشون في الأرض فساداً بنشر الفتن، أو ببث الإشاعات، أو مخالفة أوامر أولي الأمر، ومن يفعل غير ذلك فهو عاص لهم، يقول القرطبي: «إن المعنى في

³⁷⁴ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 5 / 251..

³⁷⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 8 / 571.

³⁷⁶ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 5 / 139.

³⁷⁷ ينظر: المرجع السابق، 5 / 97.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعَوْا بِهِ ﴾ أي أنهم إذا سمعوا شيئاً من الأمور

فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم ﴿ أَوْ الْخَوْفِ ﴾ وهو ضد هذا، ﴿ أَدَاعَوْا بِهِ ﴾ أي أفسوه

وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته. فقيل: كان هذا من ضعفه المسلمين؛ ولا يصدر من

أقويائهم؛ لأنهم كانوا يفشون أمر النبي ﷺ ويظنون أنهم لا شيء عليهم في ذلك، وقال الضحاك وابن زيد:

وهو في المنافقين فنهوا عن ذلك لما يلحقهم من الكذب في الإرجاف، ولا مانع أن يكون الإخبار للمسؤول

المباشر حسب الحال والمصلحة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾

؛ أي لم يحدثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به ويفشيه. أو أولوا الأمر ﴿ لَعَلَّمَهُ

الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ أي يستخرجونه؛ أي لعلمو ما ينبغي أن يفشى منه، وما ينبغي أن يكتبم». ³⁷⁸

والهدف من طاعة أولي الأمر هو المصلحة العامة، والبعد عن الفساد، الذي ينهش في نسيج المجتمع

ويفككه، يقول ابن عاشور: «المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ فيه امتنان

بإرشادهم إلى أنواع المصالح، والتحذير من المكائد، ومن حبائل الشيطان وأنصاره ³⁷⁹، وإن هذا من فضل

الله ونعمته، ويقول الطبري المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾؛ أي ولولا إنعام

الله عليكم أيها المؤمنون بفضله وتوفيقه ورحمته، فأبهدكم مما ابتلى به هؤلاء المنافقين الذين يقولون لرسول

الله ﷺ إذا أمرهم بأمر « طاعة»؛ فإذا برزوا من عنده بيت طائفة منهم غير، الذي يقول لكتنم مثلهم،

³⁷⁸ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 5 / 291.

³⁷⁹ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 5 / 139.

فاتبعتم الشيطان إلا قليلاً كما اتبعه هؤلاء الذين وصف صفتهم³⁸⁰.

وقد نظم بعض علماء المالكية في فضل السمع والطاعة لأولي الأمر ووجوبها، ومنهم أحمد بن مشرف

المالكي³⁸¹ الذي قال:

«وأن طاعة أولي الأمر واجبة

من الهداة نجوم العلم والأمر»³⁸²

كما قال أبو عمرو الداني³⁸³:

«والسمع والطاعة للأئمة

مفترض على جميع الأمة»³⁸⁴.

وأشيد الطرطوشي واعظاً الأفاضل ابن أمير الجيوش بمصر³⁸⁵، لما قرّب رجلاً نصرانياً؛ بقوله:

«يا ذا الذي طاعته قريبة

³⁸⁰ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 8 / 574.

³⁸¹ هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف التميمي المالكي. أخذ عن: جماعة منهم حسين بن أبي بكر بن غنام. من مؤلفاته: نظم رسالة أبي زيد القيرواني، جوهرة التوحيد، الشهب المدمية في الرد على المعطلة الجهمية. توفي: 1285هـ. ينظر: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد 639 / 2.

³⁸² نظم مقدمة ابن أبي زيد الأحساني 83 ضمن قصائد مختارة.

³⁸³ هو أبو عمرو الداني، المعروف في زمانه بـ ابن الصيرفي عالم قراءات ومُحدّث ومُفسّر أندلسي. توفي 444هـ، أحد أئمة علوم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعراجه، كما كانت له معرفة بعلوم الحديث، ينظر: سير أعلام النبلاء، 77 / 18.

³⁸⁴ ينظر: الأرجوزة المنبهاة، 190.

³⁸⁵ هو الملك الأفضل أبو القاسم ابن الملك أمير الجيوش بدر الدين الجمالي الأرميني ولاة المستنصر تدبير أموره بمصر وكان وزير السيف والقلم وإليه قضاء القضاة. توفي: 488هـ. ينظر: وفيات الأعيان ابن خلكان، 448 / 2، ينظر: سير أعلام النبلاء الذهبي، 507 / 19.

وحقه مفترض واجب

إن الذي شرف من أجله

يزعم هذا أنه كاذب»³⁸⁶

وقد أمر الله تعالى الرعية بالسمع والطاعة لهم، مالم يكن في معصية الله، فطاعتهم مصلحة للبلاد والعباد، ومخالفتهم فيها فساد للمجتمع والدين، ويقول القرطبي في ذلك: «إن طاعة الأمير واجبة على كل حال، سواء كان المأمور به موافقاً لنشاط الإنسان وهواه أو مخالفاً له»³⁸⁷.

وقد بين أبو عمرو الداني وجوب السمع والطاعة لأولي الأمر؛ بقوله: «وواجب الانقياد للأئمة، والسمع والطاعة لهم في العسر واليسر والمنشط والمكره»³⁸⁸.

وحذر الله ﷺ من النزاع والفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ

رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾³⁸⁹، يقول القرطبي: «قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَا تَنَازَعُوا﴾ هذا استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم؛ بسبب اختلافهم في أمر بدر

وتنازعهم»³⁹⁰.

³⁸⁶ ينظر: سير أعلام النبلاء الذهبي، 492 / 19.

³⁸⁷ ينظر: المنتقى الباجي، 305 / 4. إكمال المعلم القاضي، 242 / 6.

³⁸⁸ ينظر: الرسالة الوافية، 134.

³⁸⁹ (القرآن. الأنفال 8: 46).

³⁹⁰ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 383 / 7.

وقال الطبري: «في الآية الكريمة يقول الله تعالى للمؤمنين ﴿أَطِيعُوا﴾، أيها المؤمنون ربكم ورسوله فيما

أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوها في شيء، ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم، ﴿فَنَفَّسُوا﴾، يقول:

فتضعفوا وتجنبوا ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾³⁹¹.

وقد علق ابن عاشور على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفَّسُوا﴾، بقوله: «وأما النهي عن التنازع

فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضاً، حتى يصدروا عن

رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى

الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ نَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. والنهي عن التنازع أعم من الأمر

بالطاعة لولاة الأمور: لأنهم إذا نزعوا عن التنازع بينهم؛ فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي»³⁹².

ولا يكون السمع والطاعة إلا لأولى الأمر حتى وإن خالفهم أكثر الناس، ومما يبين تقرير علماء المالكية

لهذا الوجه ما قاله ابن أبي زمنين³⁹³: «فالسَّمْعُ والطَّاعَةُ لولاة الأمر أمرٌ واجب ومهما قصرُوا في ذاتهم فلم

يبلغوا الواجب عليهم، غير أنهم يُدعون إلى الحق، ويؤمنون به، ويدلون عليه فعليهم ما حملوا وعلى رعايهم

ما حملوا من السمع والطاعة لهم»³⁹⁴.

³⁹¹ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 13 / 576.

³⁹² ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور، 11 / 30.

³⁹³ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زَمِين، شيخ قرطبة (324 هـ - 399 هـ) فقيه ومحدث ومفسر أندلسي. ينظر:

سير أعلام النبلاء، 17 / 189.

³⁹⁴ ينظر: أصول السنة لأحمد بن حنبل، 276.

يقول الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

395

أي لا تطعمهم فيما دعوك إليه؛ فإنك إن تطعمهم ضللت ضلالهم، وكنت مثلهم؛ لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطموه.

ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الذين همى نبيه عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: ﴿إِنْ

يَتَّبِعُونَكَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، فأخبر جل ثناؤه أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم، وحسبان على صحة عزم عليه، وإن كان خطأ في الحقيقة، فإن هم إلا متخترصون، يظنون ويوقعون خزرًا، لا يقين علم³⁹⁶.

وطاعة الله ورسوله تكون بالتسليم والإخلاص، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ

رَفِيقًا﴾ ١٦³⁹⁷ تكون الطاعة؛ أي بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما، والانتهاج إلى أمرهما،

والانزجار عما نهيها عنه من معصية الله، وجزاء من يطع الله فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايتهم والتوفيق

لطاقته في الدنيا، وفي الآخرة إذا دخل الجنة يكن مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن

أولئك رفيقًا³⁹⁸.

³⁹⁵ (القرآن. الأنعام 8: 10).

³⁹⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 12 / 64.

³⁹⁷ (القرآن. النساء 4: 69).

³⁹⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 8 / 531.

كما أنه تجب السمع والطاعة لأولي الأمر ومشورتهم وتقديم النصح لهم، فهذه الخصلة من أركان السياسة وأسس المملكة وقواعد السلطنة³⁹⁹، ولأنها سبب للصواب فيما يتعلق بمصالح الأمة وهذا واجب، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب⁴⁰⁰، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۗ﴾

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا

تَأْمُرِينَ ۗ﴾⁴⁰¹، قال القرطبي في الآية الكريمة عن طاعة أولي الأمر: «يقول ابن عباس: في هذه الآية

دليل على صحة المشاورة، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ﴾⁴⁰² إما استعانة بالآراء،

وإما مداراة للأولياء. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ۗ﴾⁴⁰³ فهذه بلقيس امرأة

جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۗ﴾

لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن

لم يبدلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم

وجدتهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من

أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ

رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ

³⁹⁹ ينظر: سراج الملوك الطرطوشي، 232.

⁴⁰⁰ ينظر: التحرير والتنوير ابن عاشور، 268 / 3. وينظر: قاعدة ما يتوقف عليه الواجب: تقريب الوصول ابن جزي، 253، القواعد

المقري 393 / 2. شرح الكوكب المنير ابن النجار، 358 / 1، القواعد والأصول الجامعة ابن سعدي، 13.

⁴⁰¹ (القرآن. النمل 27: 32 - 33).

⁴⁰² (القرآن. الشورى 42: 38).

⁴⁰³ (القرآن. النمل 27: 32 - 33).

وَأُولُو أَبَاسٍ شَدِيدٌ ﴿٤٠٤﴾ قال ابن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيته فحبسه

بقوته» . 404

وقال ابن عاشور: «وقال: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ وهذا الجواب تصريح بأنهم مستعدون للحرب للدفاع عن ملكهم وتعريض بأنهم يميلون إلى الدفع بالقوة إن أراد أن يكرههم على الدخول تحت طاعته؛ لأنهم حملوا ما تضمنه كتابه على ما قد يفضي إلى هذا.

ومع إظهار هذا الرأي فوضوا الأمر إلى الملكة لثقتهم بأصالة رأيها لتنظر ما تأمرهم فيمتمثلونه، فحذف مفعول ﴿تَأْمُرِينَ﴾ ومتعلقه لظهورهما من المقام، والتقدير: ما تأمريننا به، أي: إن كان رأيك غير الحرب فمري به نطعك» . 405

هذا، وإن من أعظم نعم الله علينا في دولة الإمارات العربية المتحدة هي نعمة الأمن والأمان، وحتى نحافظ على هذه النعمة وجب السمع والطاعة لراعي هذه البلاد، لأنه لا صلاح ولا أمن إلا باجتماع ولا اجتماع إلا بإمام يسمع له ويطاع، ولا غرابة أن نبذل كل وسعنا؛ للحفاظ على أمن هذه البلاد ووحدتها، وصلابة نسيجها الاجتماعي لا سيما هذه الدولة دولة الإمارات العربية المتحدة حفظها الله؛ لأن هذا واجب ديني، ووفاء نؤدي منه بعض الشيء لمن أحسن إلينا، وهو الوالد، والقائد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -طيب الله ثراه-، فقد وصانا على المحافظة على هذه الدولة واتحادها؛ حيث يقول الشيخ زايد رحمه الله: «إذا كنا في هذه الدولة نستقل سفينة واحدة، وهي سفينة الاتحاد، فعلينا أن نعمل على تحقيق

404 ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 13 / 181.

405 ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 20 / 265.

سلامتنا حتى تستمر مسيرتنا، وتصل إلى برّ الأمان، ولا يجوز أن نسمح بأيّ تهاون يعوق هذه المسيرة؛ لأنّ

نجاة هذا نجاة لنا، وإذا فرض أنّ هناك من يحاول إتلاف هذه السفينة، فهل نسكت على ذلك؟ أبداً

بالطبع؛ لأنّها إذا غرقت فلا أحد يضمن السلامة لنا»⁴⁰⁶.



⁴⁰⁶ الكلام العجيب من حكيم العرب الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، عبد الله راشد أحمد المر الكعبي، 1425هـ، 2003م، الطبعة الأولى، مكتبة الملك فهد الوطنية، 30.

المبحث الخامس

جهود علماء المالكية في أن فهم الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم سبب لتحقيق وحدة

النسيج الاجتماعي

لقد اصطفى الله الصحابة كما اصطفى الأنبياء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد رضي الله عنه خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء»⁴⁰⁷.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «من كان مستنأً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد رضي الله عنه، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه رضي الله عنه، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد رضي الله عنه كانوا على الهدى المستقيم، والله رب الكعبة»⁴⁰⁸.

وهم خير الناس بعد الأنبياء، لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، عن البراء رضي الله عنه أن النبي رضي الله عنه قال في الأنصار: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ

⁴⁰⁷ رواه أحمد (379/1) (3600)، والبزار في «البحر الزخار» (212/5)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (375/1). قال ابن القيم في «الفروسية» (299): ثابت عن ابن مسعود، وحسنه ابن حجر في «الأمل المطلق» (65). ومحمد الغزي في ((إتقان ما يحسن)) (2/500)، والعجلوني في ((كشف الخفاء)) (2/245).

⁴⁰⁸ رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (305/1-306). والأثر صحيح الإسناد، ينظر في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (93/1).

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ - ﷺ - يَقُولُ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامَ أَحَدِهِمْ سَاعَةً، خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ
أَحَدِكُمْ عُمُرَهُ 410 .

فمجتمع الصحابة ﷺ هو المثل الأول لتطبيق الإسلام والعمل به، هم النموذج الأرقى والأسمى لعمل
الرسول ﷺ، حتى يحاول المسلمون تطبيقه في كافة العصور، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ
النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ» 411 .

وكان الصحابة وقافين مع كتاب الله، لا يتجاوزن الآية إلا بعد فهمها والعمل بها، يفهمون القرآن
الكريم بطبيعتهم؛ لأنه نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ 412 قال الإمام القرطبي ﷺ: «نزل القرآن بلسان عربي
مبين لئلا يقولوا - فريش - لسنا نفهم ماتقول» 413 .

ويقول الإمام الطبري: «وإنما ذكر تعالى ذكره أنه نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع،
إعلاماً منه لمشركي قريش أنه أنزله كذلك؛ لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه؛

⁴⁰⁹ أخرجه البخاري في «صحيحه» (5 / 32) برقم: (3783) (كتاب المناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان) ومسلم في
«صحيحه» (1 / 60) برقم: (75) (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلى رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته).

⁴¹⁰ أخرجه ابن ماجه في «سننه» (1 / 112) برقم: (162) (أبواب السنة، فضائل الصحابة) عن نسير بن ذعلوق، وأورده ابن حجر في
«المطالب العلية» (17 / 61) برقم: (4157) (كتاب المناقب، باب فضل الصحابة والتابعين على الإجمال) وحسنه شيخنا العلامة
الألباني المصدر في صحيح ابن ماجه برقم 133 .

⁴¹¹ أخرجه البخاري في «صحيحه» (3 / 171) برقم: (2652) (كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد)، ومسلم
في «صحيحه» (7 / 184) برقم: (2533) (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلوهم).

⁴¹² (القرآن. الشعراء 26: 195).

⁴¹³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 13 / 127.

لأننا لا نفهمه، وإنما هذا تفریع لهم»⁴¹⁴.

وإذا أشكل عليهم شيء سألوا رسول الله ﷺ، فعن أبي بكر الصديق، أنه قال: يا رسول الله كيف الصلح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ»

﴿⁴¹⁵ وَكُلُّ شَيْءٍ عَمَلْنَا جُزِينًا بِهِ؟ فَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزُنُ؟ أَلَسْتَ

تُصِيبُكَ الْأَوْاءُ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هُوَ مَا تُجْزُونَ بِهِ»⁴¹⁶.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾⁴¹⁷ قُلْنَا: يَا رَسُولَ

اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بِشْرِكٍ أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ

لِابْنِهِ: ﴿يَبْتِئَ لَا شُرَكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁴¹⁸.

وهذا يبين أن الصحابة أخذوا القرآن عن رسول الله ﷺ لفظا ومعنى⁴¹⁹.

⁴¹⁴ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 19 / 396.

⁴¹⁵ (القرآن. النساء: 4: 123).

⁴¹⁶ أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (7 / 170) برقم: (2910) (كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا، ذكر البيان بأن الله قد يجازي من شاء من عباده على سيئاته في الدنيا ليكون ذلك تطهيرا عنها)، وأحمد في «مسنده» (1 / 27) برقم: (69) (مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند أبي بكر الصديق) وقال محققوه: «حديث صحيح بطرقه وشواهده»، وعبد بن حميد في «المنتخب من مسنده» (1 / 31) برقم: (7) (مسند أبي بكر الصديق) والبراز في «مسنده» (1 / 73) برقم: (20) (مسند أبي بكر الصديق، ومما روى ابن عمر عن أبي بكر). وحسنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في الأمالي المطلقة برقم 78. وصححه شيخنا الألباني في تحقيقه كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية برقم 77.

⁴¹⁷ (القرآن. الأنعام: 6: 82).

⁴¹⁸ أخرجه البخاري في «صحيحه» (1 / 15) برقم: (32) (كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم)، (6 / 114) برقم: (4776) (كتاب تفسير القرآن، باب: لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)، ومسلم في «صحيحه» (1 / 80) برقم: (124) (كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه).

⁴¹⁹ ابن القيم. الصواعق، 440.

وحال الصحابة الكرام -رضي الله عنهم- يبين مقصد إنزال القرآن، فهو لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية؛

بل لتدبر آياته وفهم معانيه، والعمل بما فيه، وهو المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

420 يقول الطبري: «وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لبنينا محمد ﷺ، وهي الدعوة التي كان نبينا ﷺ يقول:

«أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَتُشْرَى عَيْسَى»⁴²¹، ... عن قتادة قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾،

ففعل الله ذلك، فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه، يخرجهم من الظلمات إلى النور،

ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد»⁴²².

وأقبل الصحابة ﷺ جميعاً على كتاب ربهم يحفظونه، ويرتلونه آناء الليل وأطراف النهار، فجعلوه

قوت قلوبهم، وغذاء أرواحهم، وقرّة أعينهم، أقاموا شرائعه، ونفذوا أحكامه، قال الإمام الأوزاعي ﷺ⁴²³:

«كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنّة، وعمارة

المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله»⁴²⁴.

⁴²⁰ (القرآن. الأنبياء 21: 129).

⁴²¹ أخرجه أحمد (17163) واللفظ له، والطبراني برقم (629) (18/252)، وابن حبان في صحيحه برقم: (6404) وقال عنه محققه الشيخ العلامة شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وكذا فعل في تخريج المسند برقم 17163 و22261، وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري برقم 61، وجود إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره 136/8، وكذا خطأ الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام 42/1 وقال: إسناده حسن، وكلاهما تلميذان لشيخ الإسلام.

⁴²² ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 83 - 86 / 3.

⁴²³ هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، الإمام الحافظ إمام بيروت وسائر الشّام والمغرب والأندلس. فقيه ومحدّث وأحد تابعي التابعين وإمام أهل الشّام في زمانه. أُضيف إلى ألقابه لقب إمام العيش المشترك في لبنان في العصر الحديث، لما مثّلته مواقفه في عصره من تسامح مع المسيحيين واليهود من أهل الشّام، وأحد من تتلمذ لديهم الإمام مالك بين أنس. ينظر: سير أعلام النبلاء، 7 / 108.

⁴²⁴ ينظر: سير أعلام النبلاء، 7 / 125.

ولما هاجر الصحابة للمدينة، وأصابوا النعمة والراحة، ففتر بعضهم، وانشغل عن الذكر، فأنزل الله

تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾⁴²⁵ .

قال محمد بن كعب رضي الله عنه: « كانتِ الصَّحابةُ بمكةَ مُجذِّبينَ فلَمَّا هاجروا أصابوا الرِّيفَ والتَّبعمةَ، ففتروا

عَمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا»⁴²⁶ .

والأحرى أن يكون العتاب لعامة المؤمنين، فما ظنكم بالعصر المادي الذي نعيش فيه، فنحن أحوج ما نكون إلى خشوع القلب لذكر الله تعالى، فمن أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التمعُّن والتفكُّر في آيات القرآن الكريم.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتلون القرآن حق تلاوته؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ

الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾⁴²⁷ ، قال

الطبري: اختلف أهل التأويل في الدين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ ﴾ فقال

بعضهم: هم المؤمنون برسول الله ﷺ، وبما جاء به من أصحابه... عن قتادة قوله: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ

الْكِتَابَ ﴾ هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به»⁴²⁸ .

⁴²⁵ (القرآن. الحديد 57: 16).

⁴²⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 17 / 250، ينظر: تفسير الثعالبي، 9 / 241.

⁴²⁷ (القرآن. البقرة 2: 121).

⁴²⁸ ينظر جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 2 / 567.

وفهم القرآن كما فهمه الصحابة سبيل الاجتماع والوحدة، ومخالفة فهمهم وابتداع طرقا للفهم والتفسير لم يعرفها الصحابة سبيل التفرق والتشردم، وفي ذلك يقول الشاطبي: «فهم القرآن حق فهمه سبب لوجود الألفة، واجتماع القلوب، وزوال الخلاف المذموم، الذي ينشأ عنه الافتراق والافتتال، وعدم فهمه سبب لوجود الخلاف والشقاق؛ عن إبراهيم التيمي قال: «خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه؛ كيف تختلف هذه الأمة، ونبيتها واحد، وقبلتها واحدة؟ فأرسل إلى ابن عباس، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيتها واحد، وقبلتها واحدة؟، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»⁴²⁹ 430.

إذن فإن صحة فهم الصحابة رضوان الله عليهم لآيات القرآن الكريم تعني جودة التطبيق، والعمل على أساس سليم، وفي المقابل فإن خلل الفهم يؤدي إلى ضياع العلم والعمل، والخلط فيه وهذا من شأنه التعجيل برفع القرآن، ذلك أنه لم يجود فهمه وحسن العمل به، فقد انعدم مبرر بقاءه ووجوده، والعمل بموجبه أمان من رفعه، فإذا لم يكن عمل فقد خسرت الأمة مبرر بقاء القرآن بينها ومبرر وجودها.⁴³¹

واتباع الصحابة رضي الله عنهم ولزوم طريقتهم حتم لازم، ومن يخالف سبيلهم فهو متوعد بالعذاب الأليم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ

⁴²⁹ أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، 102، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه، 176 / 1 برقم 42، والمستغفري في فضائل القرآن، 303 / 1 برقم 3209، والبيهقي في الجامع لشعب القرآن من طريق سعيد بن منصور، 3 / 542، والأثر صححه لغيره محقق سنن سعيد بن منصور.

⁴³⁰ ينظر: الموافقات، للشاطبي، 147 - 148 / 4. ينظر: تفسير القاسمي لحاسن التأويل: 1 - 9 / 1.

⁴³¹ ينظر: اختلافات العلماء في فهم السنة، عبد الله شعبان علي، دار الكتب العلمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 89 - 90.

وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾⁴³²، يقول الطبري في معنى الآية: «أن من يباين الرسول محمداً

ﷺ، ويتبع طريقاً غير طريق أهل التصديق، ويسلك منهاجاً غير منهاجهم، وذلك هو الكفر بالله، من

بعد ما تبين له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم»⁴³³،

فلا يمكن أن تكون هناك مسألة فقهية تعرض للصحابة ﷺ ويتكلموا فيها، ويكون الحق خارج أقوالهم؛

لذلك نص العلماء على أن فهم الصحابة للقرآن الكريم هو منهاجاً؛ للتعامل مع نصوص الوحي في تلقيها،

وتفسيرها، والعمل بها.

وفهم أصحاب رسول الله ﷺ يقصد به اتفاقهم: والمقصود باتفاقهم هو الإجماع، والإجماع متفق عليه

بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام، وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع

من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً⁴³⁴،

والدليل على ذلك في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾⁴³⁵؛ حيث يقول القرطبي: «قال العلماء

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ دليل على صحة القول بالإجماع»⁴³⁶.

ويقول ابن عاشور: «أنه قد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية، لكون

⁴³² (القرآن. النساء 4: 115).

⁴³³ ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، 9 / 205.

⁴³⁴ مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ، 1995م المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 11 / 341.

⁴³⁵ (القرآن. النساء 4: 15).

⁴³⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 5 / 330.

إجماع علماء الإسلام على حكم من الأحكام حجة، وتقرير الاستدلال أن أتباع غير سبيل المؤمنين حرام؛ فوجب أن يكون أتباع (سبيل المؤمنين) واجباً»⁴³⁷، ولا يوجد مؤمنون في ذلك الوقت إلا أصحاب النبي ﷺ، ولعل الإمام مالك بن أنس ﷺ أكثر الأئمة الأربعة ذكراً للإجماع واحتجاجاً به، والموطأ خير شاهد على ذلك⁴³⁸.

وجهد علماء المذهب المالكي واضحة في نقل مدى تمسك أصحاب النبي ﷺ بالقرآن والحرص على تدبره وفهمه، ولا شك أن الغرض الأعلى من فهم القرآن هو العلم والعمل، فبالقرآن نتعلم، و نزداد علماً ونصحح علمنا، و كل تعامل مع القرآن يرمي إلى أن يكون عندنا علم صحيح، عقيدة، عبادة، فقه، إلخ، ولعل ما ورد في السنة الشريفة من الأجر في تلاوته؛ إنما هو خطوة نحو فهم القرآن والعمل به؛ لتحقيق تماسك نسيج المجتمع ووحدة، وإن سلف الأمة أقبلوا على هذا القرآن، وعند التوقف مع بعض أحوالهم تبين لنا ما كانوا عليه من حسن التعامل مع هذا القرآن، وليس عجباً؛ فإن السلف، الذين تتندر بما كانوا عليه من الفضائل، ونتعجب مما كانوا عليه من السبق، كانوا ﷺ بهذه المنزلة، وبلغوا هذه المرتبة بما ارتسموه من كلام الله ﷻ وتوجيه رسوله ﷺ.

⁴³⁷ ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، 5/ 201 - 202.

⁴³⁸ ينظر: الموطأ لإمام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس، علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1406هـ، 1985م، 2/ 34.